أحلام الذئاب

عبد الغني ملوك

دار اسطنبولي
للطباعة والنشر والتوزيع

ايتها الفتيات الصغيرات

لا تتوقفن في اثناء سيركن

ولا تنتن بالغرباء

لا أحد يدري ما قد تكون النهاية

كوني حكية كونك جميلة

قد تكسن الذئاب في كل شاب

إنها حقيقة بسيطة

أعذب الألسنة ، تكن فيها أحد الأسنان

وأي شيء غير انياب الذهب يقطع

أوصال الشبي الرشيقة إربا إربا

روتون جيفرز

1

كانت الريح عاتية صر، والليل الصامت ليل قر ، والثلج يندف بكراته المتناثرة الزاهية ، فيغطي الأرض ويملأ الأرجاء ، و حمدو الحمصاني ، يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وقد أسلم الروح على سرير عديلة الأقرع ، زوجته الأولى، ولم يمنع وجوده عند عديلة، حضور ضرتها نبال الدجاني ، زوجته الثانية وقد أزال الموقف الحزين كل تعارض و شقاق ، بينما وقف أولاده الثلاثة واجمين بدموع حزينة .

عزيز في الثلاثينات ، ابنه البكر من عديلة الأقرع ، يقف مع أمه إلى الجهة اليمنى من السرير ، بينما وقفت زوجته الثانية نبال الدجاني، وابناها جميل ودارين ، إلى اليسار من السرير يبكون ، و حمدو مسجى على السرير في هجعة أبدية ، يا سخرية القدر ! في الوقت الذي اجتمع فيه فرعا أسرته المتنافران ، غادر هذه الدنيا، وفي الخارج تجمع بضعة رجال متلفعون بشالات من الصوف ، والبسة سميكة ، ينتظرون خروج الميت لتشييعه ، ولم يمنعهم تساقط الثلج ، وشدة البرد من الانتظار

كان حمدو الحمصاني بقالا ، تزوج في السابعة عشرة ، من عديلة الأقرع التي تصغره بسنتين ، حملت بابنه عزيز ، و جاءها المخاض بعد تسعة أشهر ، وهنا حدثت المشكلة

، ولادتها كانت عسيرة، يا لسوء حظها ! السعادة لا تكتمل و اقتضى الأمر إدخالها المشفى 1

قال الطبيب لحمد و الشاب :

- ستكون الولادة قيصرية من الخاصرة، وعليك توقيع تعيد بالموافقة.

والكتابة . مخليا مسؤولية الطبيب قدم له ورقة ... وقع عليها دون أن يقرأها كان يعرف القراءة . لكنه لم يحصل على شهادات ، وقع على الورقة ، ، ومن سوء الحظ ، أن رحمها قد ثقب أثناء العملية ، واقتضى ذلك قطع أجزاء من الرحم فأمست عاقرا

واعتنى الأب بابنه عزيز ، ولما حصل على الشهادة الابتدائية ، ألحقه بالدكان وسلمه مسؤوليات البيع والشراء، لكنه ظل يتابع علمه في مدرسته، واثبت عزيز قدرته على تحمل المسؤوليتين ، حصل على رجولة مبكرة، مبعثها إدراكه حمل مسؤولية أسرته مع أبيه ، وكأنه الندّ في زحمة تلك الأعمال ، والمسؤوليات ، كان عزيز يعشق الرياضة، ويعتبرها جزءا من التنشئة والتربية، لذلك واظب على الصالة الرياضية القريبة من البيت، و استهوته الملاكمة على الإنسان إن يدافع عن نفسه بنفسه وأن يستزيد من ثقته بنفسه ، وهذه الرياضة من أهم الوسائل في تنمية الثقة ، و كان عزيز يحب الإبداع والابتكار والتحديث والتطوير، وعليه السعي دوما للارتقاء الخلاق ، لذلك اقترح عزيز على أبيه أن يفتح فرعاً في البقالة نفسها ، لبيع الحمص الذي تجهز طبخه ، أم عزيز في مطبخها ، ينعمه عزيز في الدكان بطحنه، وإضافة الزيت والطحينة والليمون والكمون، وقد برع في ذلك وأقبل الزبائن على الشراء لجودة الطبخ والتجهيز ، فازداد موردهما ، وسر الأب من أفكار ابنه المبدعة ، وبعد فترة أشار عليه عزيز أن يبيع دكانه وداره في الشاغور ؛ لينتقل إلى الصالحية ، وليشتري دارا كبيرة هناك ، بناؤها من الحجر الأسود والأبيض ، تضم حديقة بنيت من عشرات السنين ، فحملت الصفة الأثرية ، كان قد استوحى الفكرة من أغيد الحرك، زميله في المقعد، وقد أراد أبو أغيد ، بيع بيته لإنشاء مصنع، ونصح أغيد عزيز بشراء البيت لأن سعره زهيد، وهم في عجلة من أمرهم ، من أجل الحصول على المال سريعا، ونصحه أن يفتح من تلك الدار

دكانا كبيرة، لتصبح مطعماً شعبياً يختص بالفول والحمص فقط، فالمنطقة فيها تزاحم أقدام، وعرض الفكرة على أبيه الذي شاور العديد من أصحابه . وكلهم أجمع على صواب الفكرة، فباع أبوه دكانه وداره، واشترى دار الصالحية ، وبقي معه بعض النقود، استثمرها في تنفيذ المشروع ، وأصبح مطعم الصالحية ، من أشهر المطاعم التي تقدم الحمص والفول والفتة ، في تلك المنطقة . كان للموقع أثر كبير في نجاحه ، كما كان لجودة الطعام والخدمة الممتازة ؛ الأثر الأكبر في شهرته. وكان زوار مدينة دمشق ، يمرون صباحاً أو مساءً يتناولون الطعام في مطعمه ، فنال شهرة كبيرة وازداد المردود ، فحسن الديكور ، وجدد المقاعد والطاولات .

كان عزيز تنفيذياً ، وجمع إلى ذلك فكراً صافياً خلاقاً . يسعى للإبداع دوما .

وفي يوم دخل المطعم عابر سبيل ، عرف حمدو من لهجته أنه لبناني ، من بيروت ، وصار يتردد إلى المطعم كل أحد ، ونشأت صداقة ومودة بين حمدو الحمصاني ، وبين البيروتي الذي يكنى بأبي رياض ، وكان أبو رياض يأتي كل أحد ليتسوق

أفكار ابنه المبدعة ، وبعد فترة أشار عليه عزيز أن يبيع دكانه و داره في الشاغور ؛ لينتقل إلى الصالحية ، وليشتري دارا كبيرة هناك ، بناؤها من الحجر الأسود والأبيض ، تضم حديقة بنيت من عشرات السنين ، فحملت الصفة الأثرية ، كان قد استوحى الفكرة من أغيد الحرك ، زميله في المقعد، وقد أراد أبو أغيد ، بيع بيته لإنشاء مصنع، ونصح أغيد عزيز بشراء البيت لأن سعره زهيد، وهم في عجلة من أمرهم ، من أجل الحصول على المال سريعاً، ونصحه أن يفتح من تلك الدار دكانا كبيرة لتصبح مطعما شعبيا يختص بالفول والحمص فقط، فالمنطقة فيها تزاحم أقدام، وعرض الفكرة على أبيه الذي شاور العديد من أصحابه وكلهم أجمع على صواب الفكرة، فباع أبوه دكانه وداره، واشترى دار الصالحية ، وبقي معه بعض النقود، استثمرها في تنفيذ المشروع ، وأصبح مطعم الصالحية ، من أشهر المطاعم التي تقدم الحمص والفول والفتة ، في تلك المنطقة . كان للموقع أثر كبير في نجاحه ، كما كان لجودة الطعام والخدمة الممتازة ؛ الأثر الأكبر في شهرته. وكان زوار مدينة دمشق ، يمرون صباحاً أو مساءً يتناولون الطعام في مطعمه ، فنال شهرة كبيرة وازداد المردود ، فحسن الديكور ، وجدد المقاعد والطاولات .

كان عزيز تنفيذيا ، وجمع إلى ذلك فكرا صافيا خلاقا يسعى للإبداع دوما .

وفي يوم دخل المطعم عابر سبيل ، عرف حمدو من لهجته أنه لبناني ، من بيروت ، وصار يتردد إلى المطعم كل أحد ، ونشأت صداقة ومودة بين حمدو الحمصاني ، وبين البيروتي الذي يكنى بأبي رياض ، وكان أبو رياض يأتي كل أحد ليتسوق - 3

من الحميدية - تحفاً شرقية ونحاسيات والبسة فولكلورية ، ويعود إلى بيروت ليبيعها في محله المخصص لبيع الشرقيات والتحف .

وفي يوم شكا حمدو الحمصاني لأبي رياض همومه فقال :

قرارا. - أريد مشورتك في أمر يقلقني ولم أستطع أن اتخذ فيه

- خيرا ! ما الأمر ؟

- لقد أصبحت يا أبا رياض ، صديقا مقربا، ويستطيع المرء أن يدلي إليك بأدق أسراره ، إن زوجتي لم تخلف لي إلا ولدا واحدا ، هو ابني عزيز الذي تراه هنا في المطعم ، وأنا راغب في زيادة عدد أولادي، وقد تزوجت مبكرا في الشاغور ، وأخاف أن أجرح مشاعر زوجتي عديلة ، إن أنا جلبت لها الضرة .

- ما الذي يمنعها من الإنجاب ، ربما يستطيع الطب - وقد تقدم - أن يعينها على الإنجاب.

لا لن يستطيع لأن رحمها ، قد استؤصل أثناء الولادة ، وقد قال لي العديد من الأطباء : إنها لن تنجب .

- اترك لي الوقت الكافي ، لأفكر في أمرك مع أم رياض ، وفي الأحد القادم آتيك بالحل.

ودخل أبو رياض المطعم بعد أسبوع، ليتناول فطوره المعتاد، في كل أحد فاستقبله حمدو - كالعادة - بترحاب ، وجلس إلى طاولته .4

وقال له :

- لعلك وجدت لي الحل؟

تدارست المشكلة مع زوجتي أم رياض ووجدنا أن لا حل لك إلا في أن تتزوج من أخرى ، وزواجك من الثانية ليس بعيب أو حرام ، بالإضافة إلى حاجتك للإنجاب واعتقد أن زوجتك الأولى لا تمانع في ذلك ، إن كانت تحبك وتريد لك الخير .

لم أطرح معها الموضوع بعد .

- لا تطرح معها الموضوع مسبقا ، ضعها تحت الأمر الواقع ، ويعني ذلك أن تتزوج من ثانية ، وتنجب منها ، ثم تبسط لها الموضوع فلا يكون لها خيار عندئذ ، ومع الأيام تتقبل الوضع .

- فكرتك صائبة ، وجديرة بالتنفيذ ، ولكن أين هي المرأة التي تقبل برجل متزوج ، وعنده ولد شاب .

- لا تقلق من ذلك ، لقد درست أيضا أنا وأم رياض المسألة فقالت لي : إن في حينا ببيروت الغربية امرأة باهرة الجمال ؛ لكنها فقيرة والفقر ليس عيبا ، وقد توفى أبوها ، وليس لها إلا أمها وجدتها ، هن يشتكين من ضيق العيش ، وسوء الحال، وقد ألمحت أم رياض لها ، برغبتك وذكرت مواصفاتك ، فقبلت وقلنا إذا وافقت أنت وعزمت ، تأتي إلى بيروت ، فتراها وإن رفضت فكل شيء قسمة ونصيب .

وافق حمدو على الفكرة ، وسافرا معا إلى بيروت ، ونزل حمدو في بيت أبي رياض فأكرمه ، وأحسن مثواه ، وأخذت أم رياض، موعدا لزيارة الفتاة وأمها ، وذهبوا مساء ، وعندما رأها حمدو الحمصاني ، سقط أمام الجمال الفاتن والحسن الباهر .. طويلة ورشيقة بشرة بيضاء صافية ، عينان زرقاوان عميقتان 5

بزرقة أعالي البحار ، وكلام أحلى من العسل، وجاذبية مفرطة . كانت في العشرين تجلت في ثوب أخضر ، تشوبه ازهار بيضاء ، تتدلى من فروع ناعمة ، وتعجب حمدو الحمصاني !

وقال في نفسه :

إن قبلت بي ، تكون معجزة قد اجترحت.

وقد قبلت به وحدثت المعجزة ، واتفقوا على الإجراءات ، وتمت المراسم وتزوجها وتركها ، في بيت أمها ببيروت ، وقد بقيت في بيت أمها بعض الوقت ، مع تغطية المصاريف منه بسخاء. وكان يأتي إليها كل أسبوع ليلتي الخميس والجمعة ، فينام ليلتين عندها ، ثم يعود لدمشق وحملت منه ، وولدت له ابنا رائع القسمات ، يشبه أمه لدرجة مذهلة ، أبيض بحري العينين ، طلق المحيا ، وقد ظل جميل في بيت جدته

ببيروت سنوات ، و حمدو يزورهم كل أسبوع حاملا الهدايا والنقود ، كان حمدو سعيدا لأقصى درجات السعادة بالزوجة الجميلة ، بل الخارقة الجمال

والناعمة اللبقة ، بل الفنانة في كل شيء وحتى في تحضير الموائد، وفي طبخ الطعام وإعداده ، وفي تحضير المقبلات والتفرد بها. ولم يعكر صفوه إلا تربيتها لجميل ، وقد رأى تربيتها شاذة بعيدة عما ألف واعتاد ، ذلك أن أمه نبال الدجاني كانت تفرط في تدليله فتلبسه ثياب البنات ، وتطيل شعره وتجدله له ، كما تفعل الأمهات ببناتهن ، كما كانت تصبغ له أظافر يديه ورجليه وتناديه جوجو حتى حل اسم الدلع مكان اسمه الحقيقي كانت تنظر إليه كأنه أنثى ، وتعامله كما تعامل الإناث ، فظن الولد نفسه كذلك، حتى لهجته صارت توحي بأنه أنثى حقيقية، إضافة إلى مظهره 6

الذي فرضته أمه عليه، وتأثرت شخصيته فصار رقيق اللهجة مخنث الحركات

قال لها حمدو مرة :

إن دلالك لجميل مفرط، وتعاملك معه و كأنه بنت سيضره ويعقده مستقبلا وقد يصبح مخنثا.

ليست الرجولة بالمظهر ، بل بالذكاء والكسب والشطارة ، والناس دائما يغرمون بالأنثى ، لمظهرها الفاتن الجذاب ، وإذا كان الرجل يشبه الأنثى و له ملامحها وقسماتها ؛ فهو مستعذب مستظرف ، والكل يطلب وده .

لكنهم لن يهابوه، وقد يكون عرضة للهزء والسخرية، وما قيمة رجل بلا هيبة .

لن أدعه يتربى في مجتمع متخلف ساربيه في مجتمع مخملي ، يتطلب النعومة واللطف والكياسة .

في هذه الحالة سيكون فاشلا في الحياة ، لأن على الشاب أن يكون رجلا حقيقيا، ويتلاءم مع بيئته وعاداتها ، وإذا اكتشف أنها سيئة يغيرها ، بالإرادة النابعة من رجولته بالإقناع والعمل المثمر والرجل الحقيقي محبب حتى في المجتمع المخملي الذي تعنينه.

7. علينا كسر العادات ، وتطوير التقاليد، فالحضارة تغزونا وعلينا أن نلبس لبوسها

ولما حاول أن يفهمها ، أن الحضارة إذا لم تكن تقاد بالعلم والأخلاق والتربية السليمة والرجولة، فستكون كارثة على أصحابها .

قالت له :

- هذا ابني وأنا حرة بتربيته ، ولسنا أفضل من الغرب في

سكت حمدو على مضض فقد كان مغرماً جدا بنبال . لجمالها ورقة تعاملها ، والحب الذي يلمع في عينيها، ولم تفقده الأيام واختلاف الآراء حميميته ، ولم يجده عند عديلة الأقرع ، التي كانت جدية أكثر من اللازم ، خاصة في تربية ابنها الوحيد عزيز ، الذي لم ينل منها الدلال بل الحزم والإرشاد والنصائح ، الذي عليه تطبيقها، مع فرط في الحنان المتدفق نحوه ، ولكن ثمة فرق بين الإفراط فيه ، وبين التربية القائمة على الوعي والعقل ، التي تبني الرجل المسؤول ، الذي يعرف الحقوق والواجبات ، وحتى في معاملتها مع زوجها حمدو ، كانت في فترة من الفترات، بمنتهى الجدية ، التي أفرطت فيها ، فشابت علاقتهما الجدية ، ثم الملل ، وكان من المفروض ، ألا يكون هناك إفراط ولا تفريط ، بل توازن متقن مدروس ، ولكن عديلة الأقرع لم تفقد احترامها له ، لاسيما أنها كانت تساعده في أعمال المطعم عند إنشائه وتطبخ له مواده، فكان يرى فيها شريكا ناصحا أكثر من زوج رؤوم.

نبال الدجاني ، عندها الاختلاف اللذيذ ، الذي يفتقده، وقد خضع عند نبال الدجاني للأمر ، عندما لم ير منها اقتناعا بنبذ الدلال ، وحجبه عن جميل ، وتعويده قساوة الحياة ، وجدية التعامل، ولم يرد أن يجادلها أكثر من ذلك ، فيضغط عليها في أمر لا تقتنع فيه ، وبالمحصلة فإن ابنها جميل، الذي بنى مثاله الأول ؛ من سلوك أمه تجاهه ، وتفريطها في دلاله ، وعدم إحساسه بمسؤوليته تجاه الحياة والآخرين ؛ أن نشأ اتكاليا و شب مخنثا عنيدا وأنانياً ونهازا للفرص ، ولو على حساب القيم ، لكنه ظل ضحل التجربة ، فقساوة الحياة أحيانا نعمة، لأنها تصنع الرجال .

أما اخته دارين ، التي تصغره بسنتين، فقد شبت على أنوثة طاغية ، وجمال لا يقهر يخضع له كل من يراه ، لذلك كانت واثقة من نفسها ، لا تخشى أحدا ، واعتقدت أن الحياة قد أسلمت لها العنان ، فأحبت المخاطر والمغامرات.

وحاول حمدو ، أن يجر ابنه جميل، بعدما كبر ، ليعمل في المطعم ، ليكسب شيئا من الخشونة ومعرفة الناس ، وأن يتقن التواصل على الأقل أن يجلس وراء الصندوق للمحاسبة ، فلم يفلح ، ورفض جميل عرض أبيه ، لأنه أثر الراحة وفضل الكسل ، وقد أيدته والدته نبال في ذلك، كان عزيز يستعد لدخول الجامعة عندما أصيب والده حمدو بجلطة دماغية ، تركته عاجزا بالكاد يستطيع الجلوس ، خلف الصندوق ليحاسب الزبائن وترتب على هذا عبء إدارة المطعم ، وتسوق المواد ، وإجراء الحسابات ، وكل الالتزامات الأخرى ، على عاتق عزيز ،

فاضطر للتفرغ للمطعم ، وترك الجامعة حزينا وكانت تضحية منه كبيرة ، في الوقت الذي رفض فيه جميل ، تحمل أي جزء من المسؤولية.

وقالت نبال ردا على طلب الأب :

-لن أعلمه الخدمة في المطاعم ، بل سيكون له شأن ، وأي شان في المجتمع الراقي، بعيدا عن زفر المطاعم، ولكن جميل لم يفلح في أي شان ، لا في الدراسة ولا في غيرها، وبصعوبة حصل على الثانوية، أما دارين فقد دخلت معهد إدارة الأعمال في بيروت بعد نيلها الثانوية ، وأقامت حياتها على التحرر ، والانطلاق وكسر العادات ، والانغماس في الرغبات، وأتقنت عادات المجتمع المخملي التي

تاقت أمها إليه ، وكانت جملتها المفيدة من ثلاث كلمات ، اثنتين أعجميتين وواحدة عربية ، واعتقدت أن ذلك من أصول المعاملة واللياقة، ومن أبجديات المجتمع الراقي ، الذي حضتها أمها على إتقانه ، والتماهي فيه ، وعندما مرض أبوها مرضته الأخيرة ، اضطرت للعودة إلى دمشق ، مع أمها وأخيها ، جميل لحضور الجنازة .

توقف الثلج عن السقوط ، وهدأت الريح قليلا وخرج حمدو الحمصاني ، محمولاً على النعش يحيط به الأهل ، والأصدقاء ، والأقارب ، وأغصان الآس الخضراء ، ورغم البرد الشديد فإن عدد المشيعين كان كبيراً، لأنه كان محبوبا من الحي وأهلا للثقة ، وساعد الكثيرين بشتى السبل، وحفظ له أبناء حيه وأصدقاؤه ذلك ، وقاموا بالواجب وفاء لأعماله وخدماته، وتمت مراسم العزاء في المقبرة أولا . ثم استمر توافد المعزين إلى بيته لثلاثة أيام ، وقد حضر جميل في اليوم الأول ، وتغيب في اليومين الأخيرين فهو لا يطيق هذا المجتمع الشعبي البعيد عن روحه .

بعد مضي عشرة أيام على الوفاة ، اجتمعت الأسرة كلها : الزوجتان ، والأولاد لاقتسام التركة، وعرض عزيز أن يدفع إلى زوجة أبيه نبال وابنيها حصتهما مالاً ، وأن يحتفظ بالعقار أي بالمطعم والبيت الأثري القديم، وكان عزيز قد وفر من جهده مالا وأمدته أمه بميراث أهلها ، التي ظلت محتفظة به ، لمثل هذه الظروف.

وفضلت نبال قبض الميراث نقدا ، صارفة النظر عن العقار ، لأنها سترحل إلى بيروت ، وتربي ولديها هناك ، وتقضي بقية عمرها عند أمها ، وستجد عملا أو وظيفة لولديها، جرت الأمور بتوافق تام ولم يرد ، عزيز أن يزعج أخويه وخالته ، وخسر معهما أكثر مما ربح، وودعاه وأمه عديلة شاكرين واتفقوا على أن يتبادلوا الزيارة في الأعياد والمواسم .

وفي اليوم التالي جمعت ، نبال حقائبها وسافرت مع ولديها إلى بيروت ، واستقبلتهم الجدة خير استقبال .

على مائدة الفطور ، وحول البحرة الرخامية، حيث مال الجو للدفء ، بعد مطر رخي ناعم ، غسل شجرتي الكباد والنارنج و ثمارهما .

قالت عديله لابنها عزيز :

المسؤولية كبيرة ، وعليك حملها بقوة

اعتقد أنني حملتها منذ زمن بعيد، منذ أن ألم العجز بأبي قبل عشر سنين

ما هدفك الآن ، وبم تفكر ؟

- أفكر في تطوير وتوسيع المطعم ، وتغيير الديكورات .

هل وضعت خطة لذلك ، ومن سيساعدك في العمل ؟

الفكرة في بدايتها ، ولم أتوصل للخطة الكاملة بعد ، ولابد من مشورة أهل الخبرة .

وذهب إلى المطعم وكان اليوم أحد . في العاشرة ، دخل أبو رياض البيروتي ، وقد أصبح كهلا ، لكنه بهمة جيدة ، وعائق عزيز وعزاه بوالده وقال :

- عظم الله أجركم ، وأسكنه فسيح الجنان .

شكر الله سعيكم، ولا أراكم مكروها .

تناول الحديث مواضيع شتى، منها سفر خالته نبال ، وولديها إلى بيروت ، وتصفية التركة بينهما ، وفكرة تطوير المطعم ، بعد أن ملكه بكامله .

فقال أبو رياض :

التطوير مطلوب دائما ؛ وعليك تحويل بيتك الأثري بكامله إلى مطعم كبير ؛ ووجبات سريعة ، ومقهى ليصبح كل ذلك مركزا سياحيا، وهذا ما يجري حاليا في بيروت ، للبيوت القديمة الجميلة ، فقد حولوا البيوت الأثرية الواسعة ، إلى مطاعم ومقاه ، ودرت على أصحابها المال الوفير.

مثل هذا المشروع ، يحتاج إلى كوادر فنية خبيرة ، وإلى رأسمال كبير .

يمكن تكوين الكوادر بسهولة ، ويمكن لي أن أساعدك بطباخين ومديرين من بيروت نفسها عندهم خبرة طويلة في هذا المجال ، وأما التمويل فإن وزارة السياحة عندكم ، تمول مثل هذه المشاريع بأموال طائلة ، وبفوائد زهيدة لا تستحق إلا بعد إقلاع المشروع .

- إذا تحولت الدار بكاملها ، إلى مطعم ومقهى فأين نسكن ؟

ضحك أبو رياض وقال :

الأمر في غاية البساطة ، تستأجر دارا قريبة من مطعمك وتسكن فيها أنت وأمك، ريثما يفتح الله عليك وتشتري دارا .

الفكرة كانت في ذهني ، وأنت الآن قد أنرتها ووضحتها ، وشددت من عزيمتي ، ولكني أحتاج إلى مدير عام للمشروع بكامله إذا لم تجد في مدينتك من يشرف على المشروع ؟

فسأرسل لك من بيروت أحسن المديرين .

فكر عزيز بعد مغادرة أبو رياض مليا ، وقال في نفسه

الأعمال التجارية ، تحتاج لجرأة مدروسة ، وهناك مكاتب الدراسة الجدوى الاقتصادية ، لمثل هذه المشاريع ، فلأذهب إلى مكتب المهندس عبد السلام فستق ، فهو مختص بمثل هذه المشاريع ، وقد أجد عنده المدير الكفء

ولقي التشجيع من عبد السلام فستق ، كما أمده بمهندس مختص في أعمال الديكور، وتعهد المكتب بكافة الأعمال الإدارية

تلزم المشروع والروتينية ، بما فيها قروض وزارة السياحة ، والتراخيص التى وخلال أسبوع وجد بيتا قريباً مؤلفاً من أربع غرف ، وله شرفات وإطلالات فاستأجره ونقل الأثاث إليه ، وسكنه مع والدته عديلة، وبدأ العمل بوتيرة سريعة ، تحول البيت القديم إلى مطعم كبير ، ومقهى ، تحت إشراف المهندسين والمشرفين، بعد شهر انتهت الأعمال، وحصل على القرض.

وكان أبو رياض قد دعاه إلى بيروت ، المقابلة الكادر الفني المختص ، لإدارة المطعم والمقهى ، واتفق معهم بعقد عمل على القدوم بعد أسبوع إلى دمشق ، وزودوه بلائحة بالأدوات اللازمة المرافق المطعم .

لم ينس عزيز ، أن يزور خالته وأخويه، رغم انشغاله بأعمال الإعداد لمشروعه ، فكان كلما حل ببيروت ، يزورهم ويسأل عن أحوالهم واحتياجاتهم ، وأنه مستعد دوما لتقديم المساعدة، ومستعد أن يشارك أخاه جميلا في مشروعه المزمع ، وكانوا يشكرونه على مواقفه النبيلة وهداياه، لكن الأم ترفض فكرة أي مشروع تحت سيطرة عزيز، لتضارب المنطلقات والأفكار .

وسبق الافتتاح ، حملة دعائية منظمة نفذها مكتب المهندس ، عبد السلام فستق ، ومن ضمنها دعاية تلفزيونية ، صورت الحديقة وأشجارها، والبركة ونوافيرها ، ومحتويات المطعم والمقهى والوجبات السريعة .

وكان الافتتاح الكبير، وحضره بعض المتنفذين والمسؤولين الذين دعاهم المهندس عبد السلام فستق باسم عزيز ، والذين

يشجعون التجارة السياحية . وقد سمى عزيز المطعم الكبير، بناء على اقتراح المكتب باسم) مطعم ومقهى ، القمر الأزرق)

تقاطر الزوار والزبائن ، من كل حدب وصوب، وأعجبوا بهذا الانجاز ، وكسب المركز السياحي سمعة وصيتا كبيرين ، وصار المقهى ملاذا ، للأدباء والمفكرين والمعلمين والمحامين ، الأساتذة الجامعة ، ورجال الفكر، الذين ارتاحوا للحديقة وأشجارها المحملة بثمار الكباد والنارنج ؛ وللبحيرة ونوافيرها ، وللمرج الأخضر ، الذي تناثرت على حواشيه - بشكل بديع - زهور بيضاء ناعمة ، واستطاع عزيز ، عقد صداقات مع زواره من هؤلاء النخبة ، ومنهم المفكر ، رضوان البلتاعي ، الذي كان يجلس معه قليلا من الوقت ، في كل مرة يزور فيها المقهى .

وقد قال له مرة :

- ما مؤهلاتك الثقافية يا سيد عزيز، فمثل هذا الصرح ، لا تصدر فكرته إلا عن ثقافة عميقة .

ضحك عزيز وقال :

- الثانوية فقط .

- و (مالو) كثير من الأدباء والمفكرين ، لم يحصلوا على شهادات ، أحياناً لا تثمر الشهادات ثقافة ، ولا تنتج فكرا ، عليك يا عزيز بالقراءة ، واقتطع من يومك ، وقتا لهذا ، لا تنسى الروايات والكتب ، وأنا سأزودك بها ، كما أن عليك أن لا تترك الكتاب ، اجعله صديقاً لصيقا ، إنه لا يتركك حتى في غرفة نومك فكن وفيا له.

- لم اتخذ القراءة عادة من قبل .

ابدأ بالروايات المسلية ، لتنتقل إلى الأفكار.

اقتنع عزيز بالفكرة ، وعمل بتلك النصائح، وصار يجالس زواره ، في المطعم والمقهى، من أهل الفكر والأدب والفن ، مستمعا مصغياً ، ثم سائلا مستفسرا ، ثم صار مجادلا ، وصاحب رأي، وأمدته القراءة التي عشقها كما لم يعشق أي شيء في حياته بثقافة غنية ثرة ، فصار يشهد له بالثقافة ، وأحيانا يطلبه زواره المثقفون ، من أدباء وكتاب وأساتذة جامعة ، ليدلي برأيه فيما يختصمون فيه .

وقد بدأ مردود هذا الصرح السياحي ، يعطي أكله ، وما زال يعلو ويكبر ، وفي غضون سنتين ، وفى عزيز قرضه ، واشترى البيت الذي استأجره من مالكه ، لكنه لم ينس خالته وأخويه في بيروت ، فكان يزورهم ، كلما ذهب إلى لبنان حاملا الهدايا ، شارحا لهم عمله ، الذي أقدم عليه ونفذه، ومرة عرض مجددا على جميل ، أن يعود لدمشق ويستلم جزءا من العمل .

لكن جميلاً قال :

اريد مشروعي الخاص بي ، كما أنني لا أستطيع ترك بيروت التي أحببت .

وفي لحظة ؛ جلس عزيز مع أمه في شرفة بيتهم الجديد ،

يحتسيان القهوة .

قال عزيز :

أفكر في البحث عن زوجة صالحة .

لقد أسعدتني جدا يا ولدي ، وهذا يوم المنى .

من برأيك الزوجة الصالحة ؟

الزوجة التي تختارها وتحبها أنت ، هل وجدت أو اخترت

واحدة بعينها ؟

لا لم أختر ، كان بعض من أعرفهم عندما يودون الزواج يذهبون إلى أبواب مدارس البنات ، فهناك البيضاء والشقراء ، وذات العيون الملونة ، ويتابعونها فيستدلون على بيتها ويرسلون أمهاتهم لخطبتها ، مثل هذا الأسلوب غير منطقي ، ويأخذ بالشكل دون المضمون ، وفي رأيي ، أنه أسلوب ساذج ، قد تجاوزه الزمن ، ولا يدل على مكامن

المرأة الصالحة ، البعض الآخر يرسل أمه لتطرق البيوت ، فتبحث عن بنات للخطبة ، وهذا اشد سوءاً ، وأكثر قدما ، وقد تجاوزه الزمن أيضا .

الفريق الثالث : يحب فتاة من أول نظرة، يلتقي بها في مقهى أو في دكان ، أو حتى في الطريق ، أو مصادقة في محطة القطار ، ويعجب بها ، وفورا يخطبها ويتزوجها، ولا يلبث بعد ذلك إلا قليلا ، حتى يطلقها ويقول لقد فرط الحب ، وهذا الأسلوب أيضاً لا

يعجبني ، وإن كان أكثر تطورا من الأسلوبين الأعميين اللذين سبقا ، أريد أن أعرف ، كيف يتم العثور على المرأة الصالحة؟ وقد سمعت قولاً : إن من يظفر بها ، يكون قد حقق نصرا ، و تربت يداه ، وفي حارتنا بالشاغور ، شيخ حكيم ، هو أدهم العنتبلي يجمع بين ثقافة التراث ، وموضوعية العلم ، مثقف عصري يقرأ روايات حديثة ، لكتاب عرب اتهموا بالعلمانية ، مع أن العلمانية ، لا تتعارض مع الدين الفطري، الذي أراده الله لعباده ، وبشر به رسله ، ويقرأ لسارتر وهيغل و راسل وكولن وولسن ، ولا يجد حرجاً ، هو ينتقدهم ، و يعرف طريقة تفكيرهم ، وقد يلمس في بعضها وجهة نظر مهمة ، وبعضها قابلة للتعديل وفق البيئة والظرف . إنه لا يخاف فكر الآخر - ولو عارضه - بل يستفيد منه ، ومن الأفكار تتوالد الأفكار، كما أنه يفهم الحداثة ومراميها ، إيجابياتها وسلبياتها ، ويهضم جوهر الدين دون قشوره ، بعضهم يأكل الموزة بقشرها، أو يكتفي بالقشر فقط ، إنه يفهم المرامي والغايات، ويكره التأويلات ، التي تخدم المصالح أو المقامات والسلطات والكراسي ، يحب البحث في الجوهر، والغوص لاكتشاف المرامي البعيدة الخالدة ، ولا يتأثر بالأفكار الغربية البراقة ، إلا إذا استندت إلى منطق أكيد .

ذهب عزيز إلى أدهم العنتبلي ، فوجده جالساً في مضافة الحي ، وغالباً ما كان يتواجد هناك ، ليعيش بين الناس ، ويعرف أفكارهم، و يضطلع على آمالهم وآلامهم ، سلم عليه الشيخ بحرارة وقال :

أهلا بعزيز ، الذي جاء يطلب المشورة .

من أدراك بهذا يا مولانا ؟

- فراسة المؤمن .

هذا صحيح، وأريد أن تعلمني وتدلني على المرأة

الصالحة ، لأقترن بها فقد نويت الزواج .

اظفر بذات الدين تربت يداك !

ما المقصود بذات الدين يا مولانا ؟، هل هي من تصوم وتصلي وتحج وتزكي ؟

هذه عبادات بين المرء وربه ، نسميها شعائر ، ولكنها لا تحمل جوهر الدين ، الذي هو المعاملة والأخلاق ، ابحث عن المعاملة والتربية التي نالها الإنسان في بيت مثالي .

ما صفاتها إذن ؟

متعلمة وعاملة ، لبقة وكيسة ودبلوماسية، تتحمل أعباء الحياة ، وزلات الزوج ، هي صابرة ومصابرة ، قانتة وحافظة ،

هي الأخلاق المتجسدة بامرأة .

- هلا أفصحت أكثر ؟

متعلمة لأن الله حض على العلم : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) ، وعاملة (إنا لا نُضِيعُ أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عملا) ، والعلم بدون عمل يبقى حبيس العقل ، فلا يستفيد منه إلا حامله ، أما الدبلوماسية اللبقة : فالمؤمن كيس فطن ، والمرأة التي تتحمل أعباء الحياة ، وتعفو عن زلات الزوج ، (فهي من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والصابرة المحافظة فهي من زمرة : الحافظين فروجهم والحافظات ، والقانتين والقانتات) .

- ولكن من الصعوبة بمكان ، العثور على من يحمل مثل هذه الصفات

- بل من كثيرات إذا أعملت التأمل والبحث والتفكر والتدقيق.

- هلا دللتني على واحدة منهن ؟

ضحك الشيخ ، وكأنه قال في سره : (لم يبق لي إلا ممارسة دور الخاطبة) .

- قبل أن أدلك ، عليك أن تذهب إلى طبيبة الأسنان ، الدكتورة رضية الهدوان ، لتنظف لك أسنانك وتبيضها ، وأظن أنك تحتاج لذلك ، فليس من المعقول أن تلقاها بأسنان غير براقة . وتعود إلى بعد شهر أو أكثر ، لأرشدك إلى واحدة من ذوات الدين.

تعجب عزيز من الشيخ ، فما علاقة تبييض الأسنان وتنظيفها، بكل ذلك الموضوع ! وهل من الضروري لمن يختار زوجة صالحة ؛ أن تكون له أسنان براقة ؟

لكنه قال في نفسه :

سأذهب ، ولنرى النتيجة !

دخل عيادتها الأنيقة المؤثثة ، على طراز راق ، وأناقة مبدعة فاستقبلته بنظرة فاحصة فقال :

أريد إن أبيض أسناني وافحصها ، وقد أرسلني وأرشدني إلى عيادتك ،

الشيخ أدهم العنتبلي .

أهلا بك ، وبالشيخ الحكيم .

ما عملك وأين تقيم ؟

قص عليها حياته بشكل مختصر.

فقالت :

- يستغرق تبيض الأسنان عدة جلسات ، أحددها لك فيما بعد .

ثم وهي تفحص أسنانه ، كانت تسأله عن اسمه الكامل وعن مهنته ، المؤهلات العلمية و الثقافية ، المدارس التي درس بها ،

الأساتذة الذين درسوه ، جيرانه في الحي

قال في نفسه:

- هل أنا في عيادة أم في مركز تحقيق ، لو كنت أشكو من مرض داخلي ، ربما كان للأمر مسوغ ! اليوم الأمور كلها محيرة ، ملتبسة ، لأمض في الشوط حتى نهايته .

قبل أن يصل إلى عيادتها ، كانت قد تلقت هاتفا من الشيخ

الحكيم أدهم العنتبلي قال فيه :

بعد قليل سيدخل عيادتك ، شاب عصامي صهره العمل ، وأدبته الحياة ، قليل من العلم وكثير من الأخلاق والعصامية ، عالماً يفتقر إلى الأخلاق والدين ؛ أسوا من رجل عادي يتمتع بخلق

قويم اسمه : عزيز الحمصاني جاء ليبيض أسنانه .

هذا الرجل بحاجة إلى تفحص عميق ودراسة لمشروع حياة فقد وجدت فيه بذورا طيبة ، وخلقاً صالحاً ، يبشر بأفق وأمل .

وعندما استلقى على الكرسي ، اكتشفت حقيقته عبر إجاباته ، وعرفت أنه عصامي، وأنه من منبت أخلاقي صالح ، نظفت له مقدمة أسنانه

وقالت :

بعد يومين تأتي العيادة مساء لتكمل التبييض .

عاد بعد يومين ، ولمس منها ترحيبا وودا وارتياحا ، وكان الوقت الذي حددته لمجيئه ، هو وقت خلو العيادة من المرضى ، وقبل أن تبدأ العمل قالت :

- كنت قد أعددت بعض القهوة ، قبل مجيئك وشاء الحظ إن

نشربها معا .

من دواعي سروري .

وسألته عن جلسائه و أصدقائه ، وعن الكتب التي قرأ .

ففهمت أنه يراكم ثقافته وبعد ذاته، مع عمله اليومي الدؤوب .

وسألته في تلك الجلسة سؤال اختبار فوجئ به، قالت :

- هل الإنسان مسير أم مخير ؟ وما مفهوم الحرية عندك ؟

كان هذا الموضوع مجال نقاش مع الدكتور رضوان البلتاعي ، الذي يلتقي به في المقهى لذلك أجاب بيسر :

- الإنسان مخير فيما يعلم، مسير فيما لا يعلم، إنه يزداد حرية كلما ازداد علما ، الحرية من غير قانون ليست سوى سيل مدمر، فالعقل روح الحرية، والإنسان حر فيما لا يضر.

أعجبت بإجاباته المركزة ، ثم علمت منه أنه يجالس المفكرين ، من رواد المقهى ، وقد أصبح مولعا بالنقاش ، نظفت له قسما آخر من أسنانه وأعطته موعدا بعد يومين .

توالت اللقاءات والجلسات ، وأزيلت الكثير من الحواجز والكلفة ، وأعجب هو بذكائها وجمالها وأدبها ، حدثته عن أسرتها وعن أبيها الذي مات منذ خمس سنوات ، وكان مدرسا للغة العربية متميزا بين زملائه ، يتعفف عن إعطاء الدروس الخصوصية ، رغم احتياجه إلى المال . وكانت أمها موظفة في مركز للرعاية الاجتماعية، وقد ربياها

التربية الأخلاقية الصالحة الفاضلة ، في جو اجتماعي نظيف ، كما علماها طرائق التفكير المنطقي ، وعدم التعميم ، وأن المحبة هي غاية الحياة وأساس الدين .

إنها الآن تعيش مع أمها ، في حارة الشيخ أدهم العنتبلي ، يزورانه ابتغاء الحكمة ، و يزورهم ابتغاء تمتين الوشائج ، والاطلاع على أحوال الناس ، وتطلعاتهم ، والتخفيف من آلامهم والمساعدة ما أمكن في تحقيق أحلامهم .

ودعاها عزيز إلى القهوة في حديقة مطعمه، ولبت الدعوة ، وجلسا يتنادمان بجوار البحيرة تحت شجرة النارنج ، التي اعتاد عصفور أن يزقزق على أغصانها ، داهم المجلس الدكتور رضوان ، وسلم على عزيز ، الذي عرفه بالطبيبة رضية .

وجرت مناقشات ثقافية وفكرية ، أبدع فيها عزيز في الرد. بينما كانت مشاركة الطبيبة خجولة متواضعة ..

قال الدكتور رضوان العزيز :

- لقد ملكت التفكير الصائب بتراكم ثقافتك، أهنئك يا دكتورة رضية بهذا الصديق .

وتكررت زياراتها للمقهى أحيانا ، مع زميلات لها أو صديقات ، وأحيانا بناء على دعوة من عزيز ، ومرة دعاها للغداء قلبت الدعوة وطال الحديث وبدأت تحاك خيوط الغرام ، وأخذ شيء من الألفة والود ، يتنامى بينهما .

وسأل عزيز نفسه :

- أهي الصداقة يا ترى ؟ ! أم عاطفة أخرى تتخلق ؟ ! أم هو العشق ، الذي سرى في حنايا القلب ؟!

وبينما كانت تجلس بجانبه ، وكان منشغلا، التفت فجاة إليها، فرآها تحدق به بنظرة إعجاب ، وتعلق نظره بعينيها ، دقائق

فلم يستطع الانسحاب، فقال لها :

أجمل عيون أراها في حياتي .

فضحكت باستحياء وقالت :

يعجبني الرجل العصامي ، الذي يرفع نفسه بنفسه ، كعود الزنبق الشامخ ، المعتد بنفسه كطاووس يزهو بما وهبه الله.

علي أن أشكر الشيخ أدهم العنتبلي ، فعلى يديه تعرفت على أجمل إنسانة، قطفت الحنان من عينيها المتألقتين ، أنت المرأة الصالحة التي بحثت عنها السنين، والتي عشقتها لدرجة اليقين

ورجع إلى الشيخ بعد أكثر من شهر ، ولما رأه الشيخ ضحك

وقال :

هل نظفت أسنانك كما يجب ؟

نعم فعلت . وتابع بمكر :

قد أتيتك لترشدني إلى المرأة الصالحة وها قد عدت .

أنت وجدتها بنفسك فلماذا تسألني؟ الحقائق قريبة منا دائما لكننا نتجاهلها اذهب إلى الدكتورة رضية و اخطبها من أمها .

أخاف أن تشيعني بالرفض !

لا تتشاطر على شيخك يا عزيز، فلقد اقتنعت بك مثل ما اقتنعت أنت بها ، لقد وجهتك يوما لتكتشف بنفسك ، وتحب بإرادتك ، فلا تخضع لإيحاءات أحد ، أو توجيه صديق ، حتى ولو كان شيخاً حكيماً . لا ضير على الشاب إن اختبر زوجة المستقبل فالود والرحمة من ضرورات الحياة السعيدة ، والتي حض عليها ديننا ، الذي بني على الحكمة والموعظة الحسنة .

ادرك عزيز فطنة الشيخ وذكاءه ، وعرف معنى الأسئلة الكثيرة ، التي كانت تطرحها رضية عليه ، مرة بحب الاستطلاع، ومرات بالزيارات المتكررة ، والحقيقة أنها تختبره ، وتدرسه فكانت تسر بكل اكتشافاتها ، وكان المفتاح كلمات الشيخ الذي أوحى لها وألمح : إن هذا الشاب من طينة صالحة ، فإن الله القلب فخير وبركة ، وإن نفر منه

فسيجود الزمان بغيره ، تم كل شيء بيسر بعد القناعة والرضا ، زواجاً ناجحا واختيارا موفقا .

وظفر بالزوجة الصالحة ، التي خلفت له ذكورا أربعة فيما سيأتي من الأيام .

2

اقامت نبال الدجاني ، وولديها في بيروت ببيت الجدة شهوراً، لم يحققوا خلالها أي انجاز يذكر، وقد وضعوا ميراثهم في المصرف بفائدة زهيدة ، ومازال التضخم يقضم رأس المال ، كفار دؤوب ، واتجه جميل ودارين إلى الحياة الصاخبة، والمراتع الليلية والمقاصف والمقاهي البحرية ، لم يتركوا مكاناً إلا زاروه ، فتعرفوا تقريباً على جميع مرافق بيروت السياحية ، واقتضى ذلك مزيداً من المصاريف حتى قالت لهم أم جميل مرة :

ما هذا التبذير ؟ إذا ظلت الأمور تسير على هذا المنوال فعلى الميراث السلام .

فقالت لها دارين :

علينا أيضاً أن لا نهمل مسراتنا وسعادتنا وأن نغب من ملذات الحياة ، كما علمتنا ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

أيدها جميل في ذلك وقال :

في يوم ما سيظهر مشروعي ، ولكني بحاجة إلى مزيد من التفكير

وفي يوم الأحد بعد أسبوع ، جاءت دارين ملهوفة بسرور

لتخبر جميل :

اليوم تقام حفلة ديسكو في ملهى (الكريزي كات)، علينا

أن لا نفوت متعتها .

(أوكي) سنذهب سوية في الثامنة

وذهبا لحفلة المساء ، لم يبدأ الرقص بعد تناولا زجاجتي بيرة ، وبعد ذلك بدأت الموسيقى الصاخبة العنيفة ، ذات الإيقاعات الراقصة ، فقام الشباب والصبايا يرقصون، وبدوره قام جميل و دارين يرقصان معا متقابلين ، بعد هنيهة تقدم من دارين رجل أنيق، في أواخر الثلاثينيات، وقال الدارين :

-هل تسمحين لي برقصة ؟

لم يحرك جميل ساكنا، ولم يبد أي اعتراض، لكنه توقف عن الرقص، باحثا عن أخرى يراقصها ، لم ينتظر طويلا حتى وجد فتاة بمفردها عارية الظهر ، مندلقة الصدر ، كأنها مخدرة ، طلب مراقصتها فوافقت ، وكانت دارين وصديقها الجديد ، قد ابتعدا إلى العمق، وضاعا بين الراقصين ، ثم توقفت الموسيقى قليلا للاستراحة، ولتغيير نمط الرقص ، إلى هادئ ناعم حميمي فدعاها لشرب قدح من الويسكي على منصة البار، فلم تمانع ، وجلس كل منهما على كرسيه العالي ، فقدم لهما النادل كأسين مع الثلج .

قال الرجل مقدماً نفسه :

أنا المهندس جمران العيسى، من شركة النقل والطاقة لما وراء البحار .

فأجابت دارين بدورها، وقد بدأ الشراب الناري ، يسري في عروقها :

- أنا دارين الحمصاني سورية الأب بيروتية الأم ، ومؤهلاتي معهد عالي (إدارة أعمال) .

أبشرك بأنك ستصبحين من الزملاء، ومن تعداد العاملين في شركتنا، فالشركة تحتاج إلى مديرة مكتب جديدة بدل القديمة التي استقالت .

في الحقيقة إني أبحث عن عمل .

و انسابت موسيقى ناعمة هادئة ، تصلح للمحبين عندما يتناجون، فقام وأمسك بيسراه يمناها وكانت يمينه تلامس ظهرها العاري الحار وتكتشف أبعاده .

همس :

عندما رأيتك، صرت أؤمن بالحب من النظرة الأولى .

ارتحت إليك، عندما سمعت لطف حديثك ومجاملاتك .

- ما رأيك أن نتعشى غدا في مطعم الفراشة الحائرة) . حيث الجو أكثر رومانسية وهدوءا ، وأضواؤه الخافتة مميزة .

أعرف المكان ، لكنني لا أستطيع أن أتأخر أكثر من العاشرة ليلا .

إذن نذهب ونلتقي هناك في السابعة فعندي حديث سأفاجئك به.

قله الآن .

سيكون غدا أجمل في جو رومانسي .

في هذه اللحظات جاء جميل ، وقد ترك صديقته المخدرة ، باحثا عن دارين فوجدها مع جمران ، عرفته إلى أخيها وأنهما سيلتقيان غدا في (الفراشة الحائرة) ، ثم ودعا جمران وانصرفا .

في الطريق قالت لأخيها :

البحار. - وعدني بوظيفة ، في شركة الطاقة والنقل لما وراء

غالباً هؤلاء يكذبون !

وربما أيضا يصدقون !

ووصلوا البيت ، وسألتهم الأم عن المشوار.

قال جميل :

تعرفنا إلى مهندس ، يعمل في شركة كبيرة ، وعد دارين بوظيفة فيها ، وسيلتقيان غدا مساء لبحث التفاصيل .

-هذا خبر جيد ، وعليك يا جوجو ، أن تبحث أنت أيضا عن مشروعك العتيد ، لأننا في الحقيقة نبذر مالاً ورثناه ، وكان الأولى أن نستثمره منذ البداية ، في مشروع منتج ومربح، لكننا مع الأسف صرفنا قسما لا بأس به، على الكماليات والسهرات .

قال جميل :

- من الغد سأبحث عن مشروعي على أرض الواقع ، وأتمنى أن أجد مطعما صغيرا وخمارة للمشروبات .

قالت الجدة التي بلغت السبعين :

- أسمع جعجعة ولا أرى طحينا .

أكدت الأم على كلام الجدة ، بينما استهزأ جميل ودارين ،

بإشارات تبادلاها ، من أفكارها العتيقة

وفي صباح اليوم التالي، تمشى جميل متفحصاً شاطئ بيروت، من أوله إلى أخره عله يعثر على مطعم صغير فارغ،

يستأجره أو يشتريه ، كانت المطاعم كلها مشغولة، وكان عمال المراكب الصغيرة، والصيادين وعمال البحر يملؤونها ، وبعدها يخرجون كل إلى عمله.

قال في نفسه:

-لا بد من أن أمتلك (سناك) 1 فالزبائن هنا كثر ، والأقدام تتزاحم بحثا عن فطور سريع ، لكنني سأضيف زاوية ومنضدة عالية، تكون خمارة للنبيذ والبيرة ، في نهاية المطاف ، رأى أعجبه مدخله المميز وديكوره الخارجي، الذي غلب عليه اللون الأحمر والأسود ، وعلى باب (سناكاً) على زاوية البحر المطعم ثبتت لافتة أنيقة مضاءة مكتوب عليها باللغة الأجنبية وبخط عريض (سناك البحر للوجبات الخفيفة وللخمر) وفي أسفل اللوحة،

كتبت بعض كلمات بالعربية، وبشكل خجول وخط ناعم لا يكاد يبين وجبات خفيفة ونبيذ) .

صالة الاستقبال صاحب ودخل المطعم ، ولمح عند المطعم، رجل ضخم، طويل، ذو ملامح قاسية، وجهه أحمر وشعره مائل للرمادي الغامق ، ذقنه عريضة وجبهته ضيقة ، يلبس سترة رياضية سوداء نصف كم عليها كتابات باللون الأبيض، وباللغة الأجنبية ترجمتها إذا نمت معي سترتاح) . وينتعل حذاء رياضياً أسود، وبنطالاً من الجينز بلون الموف الغامق، وكانت نظراته الحادة كنظرات لص بغيض .

.....

1-مطعم صغير يقدم الوجبات الخفيفة

دخل جميل بقامته الهيفاء الفارعة الرشيقة، ووجهه الأبيض الجميل ، الذي حوى عينين زرقاوين واسعتين كعيني أمه ، كان جميلا رائعا، إنه اسم على مسمى، وكان يلبس سراويل أبيض، وكنزة صيفية بلون الفيروز ، مع حذاء رمادي ناعم يشبه أحذية الفتيات المراهقات ، طارت عيون صاحب المطعم إليه ، فتفحصه كصياد وقع في فخه طير أنيق ، لهنيهة .. رحب به وتركه يختار طاولته ، ولكن عينيه لم تتركاه فتأملته من الأمام كما تأملته من الخلف . جلس جميل عند النافذة البحرية ، كان الموج يضرب صخر الشاطئ بعنف ، ويتصاعد رذاذ أبيض ، ثم يتلاشى إلى القاع ، واقترب النادل ، فقال له جميل :

(بليز) 2 قدح من النبيذ الأحمر ، وصحن زيتون، غاب النادل قليلا ثم جاءه بالمطلوب ، وما فتنت عيون صاحب المطعم ترصده عن بعد، كان صاحب (السناك (يدعى رشوان اللبدي ، سكوباتي)، صنف من الذين يصطادون الفتيان ويغوونهم بشتى السبل ، وشاهد جميل رشوانا يحمل صحناً من اللحوم الباردة ويقدمها إليه، ويقول :

هذه ضيافة المحل ، لمن يشرفنا لأول مرة أنا ، رشوان اللبدي صاحب (السناك) هل لي بالتشرف بالجلوس قليلا إليك . قال جميل :

- تفضل .

جلس رشوان بكل لباقة وشغف وسرور. وعن خدمات محله وعرف عن نفسه وعن خدمات محله.

.....

2 - كلمة انكليزية بمعنى من فضلك

وقال الجميل :

أتمنى لو أتعرف إليك، فتكون أصدقاء فأنت كما يبدو) ابن نعم) .

وببساطة الغر، وسذاجة ضحل التجربة، حكى جميل لرشوان قصته ونيته في إقامة مشروع شبيه بمطعمه، لكنه لم يعثر على مطعم فارغ، سواء كان بالإيجار أو التملك ، قال رشوان :

في الحقيقة أبحث عن شريك لي في هذا المطعم .

لماذا الشريك ؟ ، وأنت المالك الحر !

في الحقيقة احتاج لبعض المال، فأنا أملك يختا رائعا ، أحب أن أجدد أثاثه ، وأغير طلاءه .

-عندك يخت ! وتريد مشاركة الآخرين في مطعمك ! إن سعر اليخت يفوق ثمن المطعم بإضعاف مضاعفة .

- لليخت قصة طريفة ، سأحدثك بها ، لقد اشتريته بتراب الفلوس، كما يقولون فقد كان يرتاد مطعمي هذا، شخص ثري مولع بلعب القمار ، يربح أحيانا، لكنه يخسر في أكثر الأحيان، وقد بعد ثروة كبيرة ورثها عن أبيه ، وفي مساء يوم مشؤوم عليه .

جاءني يطلب مالاً بإلحاح بما يعادل (عشرة آلاف دولار) !

فقلت له :

ماذا تعطيني مقابل ذلك المبلغ .

لم أعد أملك إلا هذا اليخت الراسي أمام مطعمك، إنه يساوي مئة ألف دولار لكنني مستعد أن أبيعه بأقل من ذلك بكثير ، لأسترد خسارتي في القمار.

قلت له :

اشتريه بعشرة آلاف دولار

لم يكن لديه خيار، كان في ضائقة، وظن أنه يستطيع تعويض خسارته بهذا المبلغ نباعني إياه ..

قال جميل :

- صفقة مربحة قلما يجود الحظ بمثلها .

- عندما ملكته، هبطت على سعادة لم أكن لأحلم بها. إنه عزيز على لي فيه ذكريات لا يمكن أن أتخلى عنها، أركبه وانزل به عرض البحر، أصطاد سمكاً، اقضي وقتا ممتعا، وفي أحيان أوقفه في مكان بعيد في عرض البحر أيضا، أقذف بنفسي منه إلى الماء فأسبح ثم أصعد إليه، ومرات أتغدى أو اتعشى أو أسهر سهرات حمراء ، وهنا ضحك وغمز جميلاً، ونظر إليه بعين ماكرة تبعتها وكزة خفيفة على جنبه ، سأصطحبك يوما، فترى بنفسك ما أقصد.

الم تكون أسرة ؟ أو على الأقل صديقة ؟

لا لست متزوجاً ، لأنني لا أحب النساء ، يقولون عنين : إنهن الجنس الآخر ولكني أحب جنسنا الآخر ! فالرجل ألطف بكثير من المرأة وأجمل قارن بين تضاريس جسديهما ، تضاريس المرأة حادة أما الرجل فجسمه رشيق منحوت، فالحب أجدر بمن كان مثلنا

ربما لم يستوعب جميل قصد رشوان وتلميحاته ، أو فهم وتجاهل ، المهم إتمام الصفقة وهي مشاركته بالمطعم ، ولكنه على الأقل لمس غرابة أطواره .

ثم قال رشوان الجميل :

كم تملك من المال ؟ وكم بقي من الميراث ؟

لماذا تسأل ؟ !

- لأنني مستعد أن أشاركك بالمال المتبقي لديك، وبأسهم أو

حصص من هذا المطعم .

حوالي عشرة آلاف دولار .

في هذه الحال تملك ثلث المطعم بمحتوياته ، و لك حق إدارته ومسك حساباته .

له : سر جميل بالفكرة ، لكنه لم يستعجل في إظهار حماسه فقال

سأشاور أسرتي وأرد لك الجواب .

أرى أن تزوروني غدا، حتى ولو لم توافقوا على عرضي، فنتناول طعام الغداء معاً ، ثم تركب اليخت بمشوار إلى عرض البحر .

فرغ الكأس، وكان قد تناول بعض اللحم من الصحن وبضعة زيتونات، وانتهى الحديث، فنهض جميل وودع رشوان ، فربت الأخير على كتفه .

وقال :

سأنتظركم في الغد صباحاً .

(الفراشة في السابعة مساء، وصلت دارين إلى الحائرة) وكان بانتظارها جمران العيسى وقادها إلى داخل المقصف، وجلسا في ركن منعزل .

قال لها :

منذ تركنك البارحة ، وإلى الآن لم تبارحي الذاكرة والمخيلة ، أتصدقين انني لم أنم من الليل إلا قليلا !

ولماذا لم تفعل ؟

إنه الحب، هبط على فجأة فزلزلني !

- سرعتك زائدة نحو العواطف | انتبه لسيارتك حتى لا

تسقط في الوديان، وعليك التروي وإعمال العقل .

السيل الجارف لا ينتظر عقول الحكماء ..

جاء النادل بطعام كان جمران قد طلبه ، مع زجاجة من الويسكي ، وظلا يتجاذبان أطراف الحديث الممتع والحار إلى أن

قالت له :

هل مازال العرض قائما بالنسبة لوظيفة السكرتيرة ؟

- إنني أطبخ الأمور على نار هادئة ولابد من مرور بعض الوقت .

اقتربت الساعة من العاشرة فنهضت قائلة :

على أن أذهب الآن فنهض ممسكا بيدها وأوصلها إلى سيارته ، وعندما أغلق الباب خطف منها قبلة سريعة فلم تعترض .

بل قالت :

(بليز) أوصلني بسرعة إلى البيت .

وصلت السيارة إلى بيتها ، وتوقفت فاستأذنت منه وودعته ، فضمها إليه وقبلها فانسحبت منه بلباقة وقالت :

- سأتصل بك فيما بعد .

كانت الأسرة كلها مجتمعة، تناقش عرض رشوان ، وتنتظر حضور دارين ، وسألتها أمها بعد جلوسها :

هل حصلت على الوظيفة ؟

- بعد فترة قصيرة أحصل عليها .

شرحوا لها الأمر مجدداً ، وتداولوا وتجادلوا في عرض رشوان وتساءلت الجدة :

لأمر ما يريد رشوان مشاركتنا ، ابحثوا عن المستفيد ، وعن الهدف والغاية .

ومجدداً استهزأ جميل ودارين بكلامها بشكل صامت وكانت أمهما في حالة حيرة، فقالت :

ماذا لو كان رشوان نصابا ؟

أجابها جميل :

سيسجل لنا في القيود الرسمية، ثلث المطعم، وسنستفيد من ثلث ريعه، وهذا بحد ذاته مورد ثابت كنا نسعى إليه . قالت الأم :

- لنذهب غدا كلنا إلى المطعم ونوقع العقود

قالت الجدة :

- سأبقى أنا في البيت ، فهذه مغامرة غير مضمونة النتائج .

استيقظ الجميع بنشاط وأمل، ولبسوا أفخر الثياب، ووضعت الأم وابنتها زينتهما ، فبدت الأم كأخت ، والصبية آية في الجمال حملوا نقودهم بحقيبة، وكانوا قد سحبوها من المصرف وكانت الوجهة مطعم رشوان .

كان عمال المطعم ساهرين طوال الليل، ينظفون كل زاوية فيه ، فبدا نظيفا براقا متلألئا، وعكس النور المتسلل ، من أشعة الشمس ، إلى سطح البحر ألوانا لازوردية ، وانتظر رشوان قدومهم بلهفة وشوق، وأقبلوا عليه بوجه سمح، وعيون براقة. تتأمل المطعم والبحر معا ، واستقبلهم بسرور واضح، ومسعى ناجح .

سلم على الأم بحرارة ، وشد على يدها ، ثم تملى محدقا وجه دارين، فأسره جمالها وانكسر أمامها، بعد ذلك التفت إلى جميل.

فعانقه وضمه وقبله ثم تركه، وقال للأم

أحبه كابن ، وأعانقه كابن ، لو تزوجت مبكراً، كان ابني في عمره لذلك أعلن لك محبتي له ، ثم تبادل معهم عبارات المجاملة. وقادهم إلى ركن قصي لإتمام الصفقة، وبعد ارتشاف القهوة قال :

- من الآن هذا محلكم ومطعمكم، عاينوه، الآن لكم الثلث ملكا خالصاً، ومن إيراده ستشترون مني ثلثيه الباقيين. وأظن أن ذلك الوقت قريب، و حتى يحين ، دعونا نتشارك في إدارته . ونقتسم أرباحه، وسمع من أم جميل استفسارات، ومن دارين أسئلة لا معنى لها ، وكان يرد على كل ذلك بلباقة وإقناع ، يفتقر

إليهما أبرع المحامين، ثم وقعوا العقد جميعهم، وأخذ حقيبة النقود

وعدها ثم قال :

الآن حان وقت النزهة ، والتمتع واللهو ، لتركب اليخت، ونقوم بنزهة بحرية، وتوجه للنادل في مطعمه .

-هيئ لنا يا مسعود، أفخر أنواع الأطعمة، وكل ما يصلح لغداء فاخر في عرض البحر ، ففعل الخادم ذلك، ونقل تلك المواد إلى اليخت .

الجسر طويل ، ما بين الشاطئ واليخت، مثبت بقوائم حديدية، وأرضية من الخشب، عبروه ونزلوا اليخت ، كان يختا جميلا انيقا فرشه جديد، ودهانه لامع، ولا يحتاج لأي لمسة

فقال جميل في نفسه :

اليخت جديد، وبكامل أناقة وبهائه، وجدة فرشه، فلم ادعى بأن يخته يحتاج لتجديد وأنه بنقودنا سيحقق ذلك .

، ولم ولكنه لم يظهر أي تساؤل عن هذا الموضوع أمامه يلفت نظر أمه أو أخته إلى هذه الناحية ، بقي جميل ودارين على سطح اليخت، كأنهما في شرفة بحرية بينما نزل رشوان ممسكاً بيد أم جميل قائلا :

تعالي لأريك كيف يقاد اليخت

انصاعت لرغبته، ونزلت معه، وجلس على كرسي القيادة. وهي على مرمى سنتيمترات قليلة منه، و قبل أن يدير مفتاح المحرك نظر إليها مبتسماً وقال :

السعادة في الحياة، لا تحتاج إلا لتدوير مفتاحها.

كما أفعل أنا الآن ، وأدار مفتاح محرك اليخت، فسمعت هديره وحركته، كان جميل ودارين في الأعلى ، يتأملان البحر ، ورحابة الأفق ، والأمواج الخفيفة المتكسرة على جانب القارب، وقد أقلع محركه ، سحرهما المنظر الرهيب والجميل ، في الوقت نفسه ، فنسيا أمهما التي كانت تجلس قرب رشوان .

وقال رشوان في نفسه :

إن الاستحواذ على الأم يسهل اجتياحي لولديها . فقال لها :

نبال انت أجمل امرأة رأتها عيني ، أحيانا تكون الأم أجمل

من البنت ، ضحكت من اطرائه وأجابت :

كلامك أحلى من العسل ، أنا أيضاً لم أسمع كلاماً جميلا مثلما سمعت الآن .

جمالك خرافي ، حرام أن يبقى بدون رجل، يعرف قيمته فيحميه ويطريه، ويحنو عليه.

الا تظن أن الوقت قد فات ، ولم يعد في العمر متسع المثل ما قلت .

لا ليس الأمر ، كذلك أنا وأنت في عز سني النضج ، هذه السن تعرف قيمة الجمال، وكيف تستثمره وتتذوقه ، يعتقون الخمرة بالسنين لتصبح ألذ وأشهى ، أكبرك بخمس سنوات، وهذه الفروق، أفضل ما تكون بين رجل وامرأة، سيضمنا يوما ما سقف واحد. ويكون المطعم للأسرة جميعاً، ويكون جميل ودارين أولادي.

سرت كثيرا ! وظنت أن الرجل قد وقع في حبها قتيلا، ولم ندر أنه رمى قمحا، لطيور حائرة محلقة، وانتظر فرحاً قادما ،

لحظة سقوطها في الشرك .

في عرض البحر، توقف اليخت وتهادى على سطح الماء . وخرجت نبال صاعدة أمامه فتأمل جسدها الذي اعتراه بعض اليباس والترهل لكن الصبا لم يودعه ! قال في نفسه :

الطيور الصغيرة الذ طعما وأشهى مذاقا ! -

وجدت ابنيها يتأملان البحر، واستنشقت هواء نقيا لطيفا فانتعشت وظهر من ورائها رشوان، الذي قال لجميل :

ما رأيك لو نسبح قليلا في عرض البحر ..

ارتعد جميل خائفاً، وقال :

أسماك القرش هنا تملأ المكان .

إنها لا تخيفنا ، وعليك أن تتشجع ما دمت بقربك .

إذا لم أخف من سمك القرش، فمم أخاف إذن ؟

غدرا ! - عليك أن تحذر من الإنسان القرش، فهو أشد فتكا وأكثر

وضعت المائدة، على طاولة مثبتة على سطح اليخت . وجلس الجميع على المقاعد حولها يتناولون طعامهم، أخذ رشوان يناول نبالا قطعة لحم، كما يفعل المحبون، فتضحك دارين في سرها ، وهي تخفي بسمة ؛ تكاد تفلت منها لتقول لنفسها :

الأولى !. ما أشد هشاشة هذا الرجل ! لقد أوقعته أمي من الجولة

لكن ضحكتها الخفية، لم تكشف المستور، ولم تدر ما يدور تحت الطاولة، فقد كان رشوان شريرا وداهية ! كانت الأم تتأمل رشوان - من مفرق الرأس حتى أخمص القدم - متسائلة :

هل هو صادق فيما يقول ؟ أم مجرد كلمات للمجاملة ؟

وهل ثمة سعادة تنتظرني؟

كان رشوان يضحك، كثعلب عثر على كرم عنب ، ناطوره

نائم مخمور، فيقول في نفسه :

أنا الضاحك الأخير، ومن يضحك آخرا - كما يقولون -يضحك كثيرا (فلقد أقنع العائلة بكاملها بشراء ثلث مطعمه، والحقيقة أن المطعم كله، لا يساوي المبلغ الذي دفعوه ، كانت صفقة الغبن الفاحش، تمت بسرعة، ولم تخضع للمشورة والخبرة وهو بهذا المبلغ، سيشتري فرنا ومطعما للمعجنات، قرب تجمع الصيادين وعمال البحر إلى أقصى الشمال من مطعمه .

وسيدر عليه أضعاف أضعاف ما يدر المطعم الذي باع ثلثه ،

إن العمال يفضلون المعجنات والمناقيش والبرك الساخنة الطازجة فيتناولونها بسرعة وشهية، وهم سائرون ومتجهون إلى أعمالهم وزوارقهم، ويدفعون بسخاء لطعام ساخن . فيا للحظ ! الذي يجلب هؤلاء إلى هؤلاء .

3

واظب جميل مداوماً كشريك في مطعم السناك ، وفي هذه الفترة كان رشوان ، يتغيب كثيرا عن المحل، وذلك بسبب انشغاله في تأسيس الفرن الجديد، والذي اشتراه بنقودهم، وغيابه هذا ترك حرية لجميل في العمل، وفي تفقد أقسام المطعم، ومعرفة العاملين فيه، فسأل النادل، الذي يقدم الأطعمة والمشروبات للزبائن :

من يتسوق المواد ؟

- المحل قائم على أكتاف عبود الأبرص

من عبود هذا ؟ فأنا لم أشاهده في المطعم، وقد صار لي في المثابرة ، على الدوام هنا أسبوعاً .

غالباً ما يكون عمله خارج المطعم . يشتري المواد وبعدها في بيته، ثم يطبخها ويأتي بها جاهزة إلى المطعم، فنضعها في البراد لحين الطلب

وسأله سؤالا، ظن أنه لن يحظى بإجابة واضحة عليه ، ولكن النادل القديم المطلع على كل شيء كان واضحا في إجابته عندما سأله :

- إذن ما دور رشوان في إدارة المطعم ؟

يقعد خلف الصندوق، ليحاسب الزبائن، ويتفرغ لنزهاته البحرية، مع بعض الأحباب

وجاء عبود الأبرص ، حاملا صندوقاً من الخشب مغلقا .

عبود : رجل في الخمسين ، غزا الشيب مفرقه " ونثر شتاء " وظهرت أخاديد بشرته العمر على رأسه ثلج الشيخوخة السمراء، وشمخ منخره الباذخ المترف في منتصف وجهه المستدير، وعلى خده آثار ضربة سكين، وجرح مندمل، وضع الصندوق وسلم على جميل وقال :

مبارك لشريك معلمنا الجديد صفقته، أنا عبود الأبرص . المسؤول عن التسوق .

أهلا بك يا عبود، منذ متى تعمل في هذا المطعم ؟

- من عمر الزس ! وكانت تربطني بالمعلم رشوان، صداقة قديمة، وأعمال مشتركة .

- هل لي أن أعرف ما هذه الأعمال ؟ وما طبيعتها ؟

ارتبك عبود ، واحتار في إطلاق إجابة مبهمة ، لأنه لا يريد أن يفصح عن تلك الأعمال التي شابها شيء من القذارة ، والسوء فقال :

يمكن أن نطلق عليها أعمالاً حرة ! وقد استفاد المعلم رشوان من ذلك، وجمع مبلغا اشترى به هذا المطعم، ولم يشأ أن نفترق، فاتفقت معه على أن أستلم قسم تسوق المواد .

في الحقيقة كانا شريكين في الاتجار بالحشيش ، كانا عن طريق (السناك) يروجان للمخدر، ثم اقلعا عن ذلك لانكشاف أمرهما ، وقد حمل الجريمة عبود لوحده، مبرنا رشوان، وقبع في السجن خمس سنين بدلا عنه ، ولم ينس رشوان هذه التضحية .
وعندما خرج من السجن وظفه في المطعم مدى الحياة، وظل ملازما وتبعاً مخلصاً .

ولما سأله عن تغيب رشوان ، في هذه الفترة خارج المطعم .

قال عبود :

إنه يعد ويجهز فرنا للمناقيش والمعجنات والشطائر :

قرب تجمع عمال البحر .

أي فرن ؟

ألم يخبرك بالأمر ؟

- لا لم يخبرني !

إنه مكان واسع، ومعد ليكون فرنا، لكنه يحتاج لبعض التحسينات الفنية، ولتجهيز بيت النار بالأجر .

منذ متى اشتراه ؟ !

من فترة قصيرة ربما من أسبوع .

استنتج جميل ببساطة لا تحتاج لذكاء ؛ أن المبلغ الذي دفعه له ثمن ثلث هذا المطعم ؛ ذهب لشراء الفرن وليس لترميم اليخت كما زعم .

فسأل جميل عبود الأبرص :

برأيك هل لهذا الفرن نجاح مرتقب ؟

نعم وبكل تأكيد، وسيعطي رشوان مردودا كبيرا .

أضعاف ما يعطيه هذا المطعم .

سكت جميل ، وقال لعبود :

لا أريد أن أشغلك عن عملك ، فاذهب لعمل ما تراه مناسباً.

فكر جميل قليلا ، وقال في نفسه :

أما كان يجدر بي أنا أن أشتري ذلك الفرن، وأملكه كاملا، وأكون حرا في إدارته، لا أخضع لأحد ، وأجني من وراء ذلك ، أضعاف ما سأحصل عليه من هذا المطعم، لقد تسرعت ولم أدرس الأمر كما يجب، وكان علي أن أستشير أهل الخبرة ، على الأقل - جارنا أبا رياض ، الذي جاء وعزانا بموت أبي، في دارنا ببيروت ، ولم ينقطع عن زيارتنا في المناسبات، ولم نرد له الزيارات في أكثر الأحيان، ولقد أضعت أوقاتي مع أختي في المقاصف والمراقص وكتب علي أن أكون شريكا لرجل قرش شرير، ولكن ما حدث قد حدث، وعلي أن أستمر في هذه الطريق التي يبدو أنني قد بدأتها خطأ .

وجاء رشوان في الثالثة بعد الظهر إلى المطعم، ولم يكن جميل قد غادر كان تعبا منهكا . وقد ظهرت علامات الإرهاق على وجهه بوضوح، فسلم على جميل ، وجلس إلى جانبه وقال :

أما زلت أيها الشريك على رأس عملك لمثل هذا الوقت ،

مرحى لك !

أين كنت طيلة هذا الوقت ؟ أراك تغيب كثيرا هذه الأيام ! اشتريت فرنا قريباً من مركز أعمال البحر ، وأنوي أن أعده للشطائر والمناقيش وللبرك بأنواعها ، وقلت في نفسي : مثل هذا الفرن يدر موارد لا بأس بها، أما الصرف على أعمال ديكور اليخت وفرشه ؛ فهذا من الكماليات التي لا تثمر أو تنتج. وإن أحوال البلد - أقصد لبنان بكامله - ليست على ما يرام إن نذر

الحرب الأهلية تلوح في الأفق، وعلى الحريص جمع المزيد من النقود، لأننا قد نضطر للمغادرة مرغمين، إذا تفاقمت الأمور.

الهذه الدرجة الأمور سيئة ؟

- ألا تقرأ الصحف وتتابع الأخبار

كلا فأنا لست سياسيا ولا أهتم بالسياسة

- عليك أن تتابع السياسة وأخبارها، بل وأن تحلل الأحداث وإن لم تكن سياسياً، فحياتك مرتبطة بها، والاقتصاد والسياسة .

وجهان لعملة واحدة، ويؤثر كل منهما بالآخر ويتأثر به .

لم يكن جميل يعلم أن رشوان ، يتابع الأحداث ويتتبع السياسة، يقرأ الصحف، ويسمع الأنباء ، و يهتم بأمور المال، فقد ظن فيما مضى أنه شاذ عربيد، ولكنه الآن يعلم أنه مهتم بالسياسة والشأن العام .

قال جميل :

وماذا علينا أن نفعل الآن ؟

- أنا أهتم بالسياسة والأخبار، وأقرر ماذا عليك أن تفعل لأنك أنت الآن غرّ بها، وأنا قد خبرت ثقافات وأفكار عنها . وأعرف أساليبها، ما عليك الآن إلا أن تقبع خلف صندوق السناك ، وتوجه الندل إلى أعمالهم ، وتراقب حسن خدمتهم للزبائن

هل بإمكاني زيارة فرنك الجديد ؟

طبعا بعد أن ينتهي العمل فيه ، سأدعوك يوم الافتتاح ،

لكن الآن عليك الاهتمام بهذا المطعم.

ادرك جميل أنه أصبح أحد عمال المطعم، لكنه بدل أن يقبض راتبه في آخر الشهر ؛ يقبض مالاً باسم أنه حصة شريك !

شريك هه لا يعدو أن يكون في حقيقته سوى موظف، ذلك أن هذا المال هو في حقيقته راتب مقنع، ربما كان راتب عبود الأبرص أكبر منه بكثير، فعرف أنه فرط في أمر نفسه، وكان عليه أن يحتاط، ويكون سيد مشروعه، ولكن ما كان قد كان

وبعد أسبوع دعا رشوان جميلا إلى غداء بحري في عرض البحر على اليخت، فتمنع قليلا بحجة الانشغال، ولكنه اضطر إلى الموافقة بإلحاح رشوان .

وتحرك اليخت من الشاطئ إلى عمق البحر، وربما تجاوز المياه الإقليمية، ثم أوقف رشوان المحرك، وقال لجميل وهو يخلع ثيابه كلها، ما عدا السراويل 3 الداخلي .

اخلع ثيابك، سنأخذ حماما شمسيا على ظهر اليخت واضطر جميل إلى خلع ملابسه ، ولم يبق عليه إلا سراويل3 قصير أبيض ، استلقيا على كرسيين طويلين ومريحين، ونظر جميل إلى البحر الواسع الكبير، فاعترته رهبة .

قال رشوان :

- أتعرف يا جميل ، كنت أخطط إلى هذه الساعة، منذ دخلت (السناك) لأول مرة، أعجبت بطلتك البهية، ولم أر في حياتي جمالا ورقة ونعومة، كما رأيت فيك .

ارتبك جميل ! ولم ينبس بكلمة، فقال رشوان :

على كل حال، أنت أيضاً اخترتني، وإلا لما شاركتني في (السناك)، وأنت كسوري لا يحق لك التملك أو العمل ؛ إلا

.....

3 سراويل مفرد على صيغة منتهى الجموع

بترخيص ولم تحصل عليه، وأنا ساعدتك في ذلك وعلى كل، الحياة تبادل مصالح وتبادل متع وسعادة.

قال جميل :

لنعد إلى البر، فقد تأخرت عن أمي .

ضحك رشوان ضحكة هزء شيطانية ارعبت جميل ، فقال رشوان :

ليس قبل أن نرقد قليلا، في غرفة نوم اليخت (يا عين أمك)، لنعزز شراكتنا ونتمتع بصداقتنا، وحبنا الذي بدأت ساعته.

أمسكه من يده، وجره بعنف إلى بطن اليخت كخاروف صغير يجره جزار إلى المسلخ ونزل به إلى الأسفل .

وبدا أن جميل انصاع لرغبات رشوان الشاذة ، وتذكر طفولته ، عندما كانت أمه تلبسه ألبسة البنات ، وتطيل له شعره، وتعامله كالبنات، وها هو الآن يعامل كذلك ، كما حضته أمه يومها على ذلك ، وكان ما كان ، كتم جميل انزعاجه خوفا و أملا في الفائدة

وعندما عادا من البحر، ووصلا الشاطئ؛ نزلا، وقد وضع كل منهما يده على خصر الآخر مسرورين فرحين ، وكانت تلك الرحلة نقطة فاصلة في حياته.

وعندما شاهدهما عبود الأبرص ، من خلف الزجاج ، قال في نفسه : (وقع الطير في القفص)

تكررت اللقاءات مرتين في الأسبوع، وتعلق كل منهما بالآخر ، وقد ترك رشوان (السناك (البحري الجميل، يتصرف فيه وكأنه المالك الحقيقي الوحيد له، لكنه في آخر كل شهر كان يدقق في الحسابات، ويعطيه حصته كما يعطي كل عامل عنده راتبه .

وفي أحد الأيام، وبعد أسابيع من حادثة البحر، وصل جميل إلى بيته، فوجد دارين في انتظاره ، قالت له :

- ما رأيك أن نسهر الليلة في (الكريزيكات)، لقد وعدت جمران هناك، لابد لي أن أبحث معه بحزم عن الوظيفة، فقد تأخر في وعده .

سأذهب معك، فأنا أيضا اشتقت لفتاتي المخدرة، التي صادفتها في المرة السابقة

- ألم تعرف اسمها وتسجل رقم هاتفها ؟

- لا لم أفعل، لأنها ربما من سكرها فقدت ذلك، فلا تعرف من أمرها شيئا .

ذهبا معا ، كانت الموسيقى الصاخبة قد بدأت، وبينما كانت تبحث عن جمران، كان جميل قد عثر على فتاته المخدرة . فهرعت إليه فقال لها :

- هل أنت في كامل وعيك الآن ؟

ضحكت فرحة، ولأول مرة، يرى جمال عينيها، وقد غمرهما بريق خاطف، وتألق خداها بحمرة زاهية، كانت في السابعة عشرة ، فقال لها :

اريد رقم هاتفك واسمك ، واسم ذويك وأين تسكنين.

لماذا ؟

- لنبدأ قصة حبنا، وتتعرف إلى بعضنا أكثر.

إنا ناريمان اليعفوري، وهذا رقم الهاتف.

سجله في ورقة احتفظ بها بجيبه كأغلى وديعة وراح يراقصها بفرح عارم .

اما دارين ، فقد عثرت على جمران، وقد أمسك بيدها .

والتحى بها في زاوية قليلة الإضاءة وجلسا على طاولة مع قدحين

من الويسكي قال لها هامساً :

غدا سأعرفك إلى أمي ، وقد حكيت لها عن قصة غرامنا ،

وعن قرب ارتباطنا فقالت لي :

(أريد أن أراها، ولكن ما العمل فأنا مقعدة لا استطيع السير

فحبذا لو أقنعتها بالمجيء إلى)

أرجوك أن تقبلي دعوتها، وتذهبي معي إلى بيتنا .

- أين تسكنان ؟

- في شقة قريبة من الشارع الرئيس للحمرا.

- إذا كانت أمك في البيت، وهي التي طلبت لقائي، فإني لن

أعارض ، أما إذا كنت أنت الذي طلبت ، لتختلي بي فلا أوافق .

- إن أمي المقعدة هي التي طلبت ، وإلا لكنا ذهبنا إلى بيتكم.

قالت :

- ليكن ذلك غدا في العاشرة صباحا، تلتقي في المقهى البحري، وبعدها أذهب للقاء أمك.

وفي اليوم التالي التقيا في المقهى البحري، وشربا قدحين من الويسكي، ثم صعدا في السيارة وتوجها إلى بيت قريب من شارع الحمرا، أخرج مفتاحه من جيبه ، وفتح باب الشقة، وتقدمها ودخل ثم دعاها للدخول ، وبعد عبور ممر بين الأبواب ، وصلا لغرفة الاستقبال، وكانت أنيقة ذات أثاث وثير ، وفرش جميل .

ثم نادى بأعلى صوته :

ماما، تعالي أعرفك إلى دارين .

لم يجب أحد .

فقال لها :

تحضر . ربما خرجت لجلب حاجة من السوق ، نشرب القهوة ريثما

قلت إنها مقعدة، فكيف تذهب إلى السوق.

- هي ليست بالمقعدة التي لا تستطيع المشي نهائيا ، أحيانا تذهب لمسافات قصيرة .

ذهب جمران إلى المطبخ ، وأعد لها القهوة ووضع لها في فنجانها مخدرا لذيذا، يسري في العروق فتتلاشى المقاومة ، شربت الطعم ، فما كادت تنتهي من فنجانها ، حتى تلاشت لديها أي نزعة بالرفض أو الممانعة، بل تمنت لو يضمها في تلك اللحظة ويأخذها ، كان العقار الذي وضعه جمران في القهوة مخدرا، وشالاً للإرادة بل محبذا للغريزة وداعيا لها، التصق بها عندما رأى اللحظة مناسبة ، وعندما حل أزرار قميصها دهش من بياض جسدها ! البياض المشرب بحمرة الشفق، كزهر لحظة 51

تفتحه في الحقول، وبلمح البرق ، جردها من ثيابها واجتاحها . فأزال عذريتها ، فلم تقاوم أو تعترض ، ربما شعر هو ، بمقاومة خفيفة تثير أكثر مما تمنع ، وتشجع أكثر مما تزجر ، انتهى كل ذلك بلحظات .

وهكذا انتقلت من ضفة إلى أخرى ، على غيمة عطر وردية كاذبة ومغشوشة ، لبس ثيابه وألبسها ثيابها وهي بين الوعي والخدر، وذهب مجددا إلى المطبخ ليعد لها القهوة التي تنشط الوعي ، ولا تذهب العقل كما في القهوة الأولى، وشربا القهوة مجددا ، فعاد لها صحو جزئي ففهمت ما أقدم عليه .

فقالت له :

- لم فعلت ذلك ، لقد أوقعتني في فخك ومصيدتك ، ولا أظن

أن أمك آتية .

- لا تخافي ولا تحزني ، هذه الأمور تحدث بين العشاق دائماً ، وفي الأسبوع القادم سنعلن خطوبتنا ، لا أنكر أنني قد كذبت عليك، إن أمي اليوم عند خالتي رفيدة في طرابلس ، ولكنها ستعود بعد أسبوع ، لنزوركم في بيتكم ونتم مراسم الخطبة، وبعدها

الزواج .

عاد إلى رشدها رويدا رويدا ، لكن قلقها وهمها ما زالا يكبران قليلا قليلا ، حتى صارا جبلا ، وذهبت إلى الحمام. فأصلحت من شأنها، وأعادت ترتيب زينتها وقالت :

علي أن أغادر فورا .

لنتعانق مجددا قبل ذهابك .

لن يحدث هذا مجددا إلا بعد مراسم الزواج .

- كما تشائين .

وأوصلها بسيارته إلى بيتها ، فوجدت أمها أمامها ، وسمعت صوت جدتها تقرأ القرآن بصوت جهوري، لتسمع قوله تعالى : "ومن يعشن عن ذكر الرَّحْمَن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبلس القرين . "

رغرغت عيناها بالدمع ، ولاحظت أمها ذلك .

فقالت :

أراك في حالة ارتباك وانزعاج، هل حصل لك مكروه مع

جمران ، وأخلف وعده بالنسبة للوظيفة .

- لن أتوظف أبدا !

وغالبها القهر والدمع فارتمت على كتف أمها تبكي بحرقة

- أظن أنه قبلك أو فعل أكثر من ذلك ،

نعم فعل أكثر مما تظنين !

أمسكتها من يدها وأدخلتها إلى غرفتها ، وأغلقت الباب ، وارتجته بالمفتاح ، ثم وضعتها على السرير، بعد أن خففت من لباسها وغطتها، لأن القشعريرة قد اعترتها .

قالت الأم :

هوني عليك يا ابنتي ، كل شيء يمكن إصلاحه ، عندما تكبر البنت تبوح بأسرارها لأمها بكل التفاصيل ، والأم أحيانا قد تبوح بأسرارها لبنتها ، بما مضى من حياتها وسلف ، حتى يكون ذلك عبرة تعتبر منها ابنتها ، أظن أن جمران قد أخذك إلى بيته ، وذهب بعذريتك .

- نعم كيف عرفت ؟

- كل شيء له حل ، فلا تهتمي ولا تحزني، وسأكشف لك عن سر دفين لم يعلم به أحد الأخف من وقع الألم لديك . لأنني اعرف مدى الحزن الممض، والجرح الأليم الذي يعتريك ويحز بك ، أنا يا ابنتي، قد حصل لي ما حصل لك الآن .

استفاقت دارين من ألمها ، وصدمتها وظهرت الدهشة واضحة على ملامحها وقالت :

هل سلمت نفسك لعشيق، قبل زواجك من أبي ؟

- نعم فعلت ، كنت أحبه، لكنه غدر بي فحملت الألم دفينا .

ولم أبح به حتى لجدتك التي تقرأ القرآن في الغرفة الثانية ، كنت أعرف أنهم جميعاً لن يغفروا لي خطيئتي ، وجاء بعد ذلك بسنوات أبو رياض، ليطلبني إلى السوري حمدو الحمصاني فوافقت على الفور .

- ألم يكتشف أبي أمرك ؟ (أعني فقدانك لعذريتك)

- نجوت بحيلة علمتني إياها إحدى الصديقات المخضرمات المجربات ، لكنني كدت أكشف ، ولكن الله سلم .

- ما هي هذه الحيلة، وهل يمكن لي استخدامها إذا خذلني

جمران العيسى وأظن أنه سيفعل .

كل شيء في وقته، ولن أشرح لك مثل هذه الأمور الآن ، لنترك ذلك للزمن وتقي بأمك فإنها تعرف كيف تنقذ ابنتها .

اعطتها حبة مهدئة فراحت تغط في نوم عميق ..

وسهر رشوان في بيت أم جميل، فاحتفوا به على طاولة عامرة ، حضرتها الجدة أم نبال، وتألق رشوان كرب لهذه الأسرة . وحامي حماها، وولي نعمتها ..

تحدث بمواضيع شتى، ومنها ظهور بوادر حرب أهلية بين اللبنانيين ، وأن اغتيال معروف سعد في صيدا هو من سيشعل الشرارة ، ثم توجه بالحديث لهم قائلا :

إذا تفاقمت الأمور، عليكم بالرحيل إلى سوريا، لأن الفتنة لن تفرق بين بريء ومذنب، بل سيؤخذ البريء بجريرة الظالم، وربما يصبح القتل على الهوية .

قالت أم جميل :

هل سنترك المطعم للقتلة، ونغادر خاليي الوفاض .

- أجاب رشوان

- بل يبقى معي جميل، ندير الفرن والسناك .

ولما سألته أم جميل عن الإيراد الضعيف والمردود القليل؛ وكان الفرن قد أقلع بنجاح منقطع النظير ؛ وأعطى في يوم واحد

أكثر ما يعطي المطعم في شهر أجابها :

- سأخصص لكم كامل إيراد المطعم وأرسله إلى سوريا فأنتم الآن أهلي وأنا المسؤول عنكم .

- قالت أم جميل :

- في هذه الحالة السفر ، وارد لتنتظر قليلا.

خلال السهرة، كانت دارين واجمة حزينة مكتئبة، حاولت تصنع السعادة، فلم تفلح، ورغم مرور شهر على مأساتها، إلا أن حزنها العميق بقي كما هو ولم يغادر

غاب جمران عن العيون ، ذاب كما يذوب الملح في الماء .

وكانت قد ذهبت لشركة النقل لما وراء البحار ، وسألت عنه

فقالوا :

ترك العمل في الشركة منذ سنة، وهو الآن خارج ملاكها

منذ ذلك التاريخ .

أسقط في يدها ، وعرفت أنه مخادع كاذب نجح في تدمير حياتها، ذهبت بعدها إلى الشقة التي شهدت مأساتها، وطرقت الباب فلم يفتح أحد واضطرت أن تسأل الجيران .

فقالوا لها :

إن صاحب البيت قد هاجر إلى أمريكا منذ خمس سنين .

وترك المفتاح عند صديقه جمران العيسى ، ولما سألتهم عن جمران، قالوا لها : إنه هو الآخر سافر إلى أمريكا منذ أسبوع . فأصابها إحباط شديد وكأبة هائلة

قال لها رشوان :

- لم أنت حزينة واجمة يا دارين ؟

أسرعت أمها بالقول :

- لقد وعدت بوظيفة، وخاب أملها في الذي وعدها، لأنه

كان كاذباً كسراب .

قال رشوان :

نفسك . داومي في السناك مع جميل، تلقي الناس فتروحي عن

تبنت أمها الفكرة وأعجبت بها .

فقالت :

- فكرة جميلة ، تخرجي من كابتك - على الأقل - وتتسلي .

قال رشوان :

أنا مستعد أن أخصص لها راتباً ، يوازي راتب عبود الأبرص .

قال جميل في نفسه : (لقد وقعت أختي في الفخ، كما وقعت أنا قبلها)

قالت الجدة :

بيتها أحفظ لها حتى يأتي نصيبها .

خرجت دارين عن صمتها وقالت :

- لقد قررت أن أنتسب لمعهد تجميل، لأتعلم الحلاقة والتجميل وفق الأصول ، ثم أعمل في صالون فيما بعد لأتدرب . ويمكن أن يكون لي صالوني الخاص فيما بعد لا أريد أن أكون مديرة مكتب بعد الآن .

قال رشوان :

فكرة جميلة أيضاً وجديرة بالتنفيذ

ايده جميل، وغايته إبعاد اخته عن رشوان ، وعندما غادر . سألوا الجدة عن انطباعها عن رشوان، فقالت :

مراوغ ، مخادع ، احذروه .

قال جميل في نفسه : (لقد سبق السيف العدل، وما أراده رشوان حصل عليه، وربما يكون القادم أعظم)

وقد بدأت دارين تحقق فكرتها، فانتسبت لمعهد تعليم قص الشعر ، وتجميل السيدات قرب الروشة، وتخرجت بعد شهرين يعود . بتفوق ، وبسرعة قياسية، عثرت على صالون راق أنيق لجورج البارد، فحصلت على وظيفة عنده، شفع لها جمالها بالحصول عليها ، أعجب بها جورج من أول نظرة فاهتم بها .

وأعطاها أسرار المهنة، بسرعة لكنه لم ينس أن يطالبها بالمقابل . وعلمت بغريزتها أنها ستطرد - إن لم تؤد المقابل - فطارحته الغرام وبادلته الحب، وهي تعلم أنه لا يستطيع الزواج بها ، لأنه متزوج أولاً، ومن غير دينها ثانيا .

كانت لقاءاتهما الحارة، تتم في الصالون نفسه بعد انتهاء الدوام، وكان جورج قد خصص - منذ إنشاء صالونه - غرفة لهوايته تلك وجهزها بكل الاحتياجات وكان له خليلات كثر ولكنه عندما تعرف على دارين ؛ استغنى بها عن كل خليلاته ، وعندما نجحت في عملها وألمت بمهنتها هجرتها الكأبة وغاب عنها الحزن، فازدادت جمالاً وتألقاً ..

وسألتها أمها مرة :

- احذري من جورج ، قد يحاول إغواءك ، وقد أغوى قبلك نساء كثيرات، فأجابتها :

- إنه رجل متزوج ، وأنا قد دفعت الثمن مرة، ولن أعيد الكرة.

لكن أمها لم تصدق قولها، لأنها لمست فرحاً في عينيها .

وتألقاً في جمالها، وغابت عنها الكآبة، وغادرها الحزن، وهذا كله لا يتأتى إلا من حب يمارس ، وقناعة بصديق له مكانة في القلب ، وتركت الأمر للزمن .

واضطرت دارين لترك العمل، عندما غادر جورج إلى بيروت الشرقية، ناقلا صالونه إلى هناك، لأن الحرب الأهلية اشتعلت أخذة أبعادا طائفية ، وأصبح الأهل يفكرون بالهجرة إلى دمشق .

4

اشتعلت الحرب بين اللبنانيين ، جرت عدة اشتباكات، في العديد من المدن، ثم شملت الحرب بنيرانها كل زاوية ، أحزاب لبنانية متصارعة، بعضها منقسمة على نفسها، وأخرى تحالفت مع الفلسطينيين، وانقسمت بيروت إلى غربية قريبة من البحر وشرقية في الجبل، وبينهما خطوط تماس ، وانقسم المسيحيون إلى فرق متنافرة، والمسلمون شيعاً ، وقسم من المسيحيين قبل : إن إسرائيل دعمتهم بالمال والسلاح والاستخبارات، لكن المؤكد أن أيد خارجية وراء هذه الحرب، تمولها وتدعمها لمصالحها . حتى قيل إن الآخرين يتحاربون على أرض لبنان .

واحترق الأرز الجميل، وحلت الماسي والويلات والنكبات. على أرض اشتهر أهلها بالسهر و الضهور) و حب الحياة . وبدأ السفلة يظهرون و يطفوون على السطح ، والنفوس المريضة تجد فرصتها .

رشوان يقول لعبود الأبرص همسا :

- هناك باخرة أجنبية في عرض البحر، تبيع الويسكي المهرب بتراب الفلوس، ما رأيك أن تذهب باليخت، فنملؤه بالويسكي ونعود به إلى المطعم فتمتلئ الرفوف، ونقلبه من مطعم إلى خمارة، وكان جميل يسمعهم ، لم يبد رأيا ، قال رشوان : هلموا إلى عرض ، البحر لنجلب الويسكي.

وتحرك اليخت متجاوزا المياه الإقليمية وكانت باخرة تقف في عرض البحر، لا ترفع علما وحولها زوارق، الإمداد المشترين بالبضائع من دخان وويسكي ، بعضهم قال إنها بواخر إسرائيلية.

وقال آخرون : إنهم مهربون للويسكي والدخان جنسيات. ، من عدة

وامتلأ اليخت بالويسكي والدخان المهرب ورجع إلى الشاطئ ينوء بحمله ، وبسرعة نقلوا البضائع وأدخلوها إلى المطعم، ثم جلسوا حول طاولة للتدارس والتشاور ، قال رشوان :

من الحكمة أن تحول المطعم إلى خمارة، تقدم كل أنواع المشروب، فمعظم المقاصف والخمارات والملاهي الليلية، انتقلت مع المنتقلين إلى بيروت الشرقية، والطلب يزداد على الخمر والحشيش في بيروت الغربية، بعد أن امتلأت بالمسلحين، من مختلف الأجناس والمشارب والقوميات ، علينا الاستفادة مما تقدمه الحرب

قال عبود الأبرص :

هذا رأي سديد ، ولكنني أفضل أن نضيف إلى المشروبات المسكرة : أصنافاً مخدرة مثل الحشيش والهيروين والأفيون . وحتى الكوكائين لأن هذه الحرب أضعفت الرقابة، بل لم تعد هناك حكومة ، حل أمراء الحرب محل الأجهزة، ويمكن بسهولة أن نتعامل مع هؤلاء الأمراء، بغض النظر عن انتماءاتهم . هذا أمر ، والأمر الآخر : أن الناس في بؤس وقهر وخوف ، يدعوهم للاستنجاد بالمخدر أكثر من المشروب ونحن بهذا نحقق أرباحاً طائلة لا تخطر على بال بل قد نصبح من أثرياء الحرب المعدودين .

قال رشوان :

إنك تحن إلى مهنتك القديمة يا ملعون سنوات السجن الخمس ، لم تنسك هواها ، وعلى كل فكرتك صائبة ، وسننفذها .

كان جميل مذهولا مما سمع، لكنه أيضاً كان مسلوب الإرادة والكرامة معا . ولما قال له رشوان :

وانت ما رأيك يا جميل ؟

- سأنفذ فكرتكما مهما تكن، وأنتما خبيران بهذا المجال فليس لي اعتراض أو أفكار جديدة .

قال رشوان ضاحكا وهازئاً في الوقت نفسه، وهو يغمز عبود

نعم الشريك ، الجميل .

وفي اليوم التالي، غاب رشوان وعبود عن المطعم، كانا يبحثان على أرض الواقع، احتياجات السوق، والأهم موردي المخدرات بأصنافها المتعددة، وسبل الانتقال إلى المهنة الجديدة، إن كان يصح أن نسمي توزيع السم مهنة .

جميل في المطعم قلق خائف ، في الأفق أمور ستحصل، لا يدرك فحواها وخطرها، واستنجد بالهروب بتذكر صديقته) ناريمان اليعفوري (التي التقاها في حفلات الديسكو، والتي كانت مخدرة دوماً ، أو مخمورة أحيانا، وبحث في جيبه عن ورقة كتبها في آخر لقاء بينهما ؛ حيث ثبتت له فيها رقم هاتفها ، فعثر على الورقة وأدار قرص الهاتف فتهادى إلى سمعه صوتها العذب .

- من ؟

أنا جميل صديقك ورفيقك في الديسكو ، أتذكرينني ؟

- طبعا حبيبي جميل ، لقد اشتقت إليك كثيرا، لم أعد أراك

منذ أن أغلق الكازينو أبوابه ، فأين أنت ؟

- أنا الآن في (سناك) البحر أنتظرك .

مشوار الطريق وأكون عندك .

كانت ناريمان في كامل أناقتها ، تغنج في مشيتها كالوجي الوحل ، وهي تدخل السناك . الآن هي في الضياء المكشوف ، لا في الأضواء الخافتة، إنها أجمل مما اعتقد ، رشيقة متناسقة واسعة العينين جميلة العنق ، استقبلها مصافحا فتناولت خديه بالقبل، وفعل هو كذلك، ثم جلسا إلى طاولة ، على نافذة بحرية ، وأمر النادل بجلب فنجانين من القهوة ، فقالت :

أسابيع من الغياب ، ولم أسمع منك همسة أو كلمة .

انشغلت ببعض الأعمال، ومنها مشاركة أحد الأصدقاء في هذا المطعم .

كم تملك منه؟

أملك النصف تقريباً (قالها مبالغاً ومباهيا)

هل تتواجد فيه كل يوم ؟

نعم في أغلب الأحيان .

- إذن ! ستجدني كل يوم صباحاً أوافيك إلى مقر عملك ، أشرب القهوة معك .

هذا رائع ! وحبذا لو يقترن القول بالعمل.

- أؤكد لك ذلك

وتكلما عن الحرب التي اشتعلت ، وعن المقاصف التي أغلقت ، وعن الناس الذين هجروا بيوتهم، وأموالهم ، وصناعاتهم، وذهبوا إلى سورية لاجئين ، وتكلما كثيرا عن الحب.

قالت له :

- إن الحب الذي بيني وبينك ، نما بفترة قياسية ، وفي صباح كل يوم - عندما أضع الزهور في المزهرية - اتذكرك وكأنك منتصباً أمامي ، نرقص ونتبادل القبل وأطراف الحديث .

وأنا كذلك أشتاق إليك قبل النوم . وعند الاستيقاظ !

إذن لنتزوج ، قبل أن تذهب الحرب بنا .

فكرة ممتازة تحتاج لدراسة ، وبرنامج للخطوات .

لا تحتاج إلى كل ذلك، أما سمعت بالمقولة (لا تتزوج إلا وانت سكران) ضحك من قولها .

وقال :

بعد أيام يرحل أهلي إلى سورية ، فتتزوج في بيتي الخالي ، هل أطلبك من أهلك الآن؟

- ليس عندي إلا أمي فقط ، الآخرون غادروا ..

ما المتطلبات ؟

ليس هناك متطلبات ، ولن تدفع مالا أو ذهبا، فقط خاتما

وصكا رسميا .

وغادرت فرحة وممتلئة نعمة ! وبقيت الفكرة ، وشاور عقله بما عرضت عليه، فهبط عليه العزم والقرار فجأة ! وقال :

- سأتزوجها فوراً، ولكن بعد ذهاب أهلي إلى سورية .64

وعاد مساء إلى البيت. فوجد الحقائب قد أعدت للرحيل . وكانت أمه قد اتصلت بابن زوجها عزيز، في سورية ليستأجر لهن بيتا في العاصمة ، فاستأجر لهن شقة ، من أربع غرف قريبة من مطعمه ، في حي الشعلان ، وسافرن بعد يومين ، وبقي جميل وحده في البيت، فأوحشه الليل ، وخاف من الوحدة ، ولم يعد رشوان يذهب به إلى عرض البحر، فأخبر جميل رشواناً بأن أهله رحلوا ، وأنه ينام الليل وحيدا في بيته ، مستوحشا ، فصار رشوان ينام عنده الليل ، في أكثر الأحيان منادما ؛ لأن البحر لم يعد أمنا ، والزوارق المنفردة واليخوت في عرض البحر ، تثير الشك ، وتضرب بالنيران المجهولة أحيانا من كل صوب ، وما انفك تجار الأسلحة والعصابات ، يهربون الأسلحة والذخيرة والمتفجرات ، إلى الميليشيات عبر البحر ففكر رشوان ببيع اليخت ، لكن عبود الأبرص قال له :

- إنه وسيلتنا الوحيدة ، لنقل المخدرات من البحر إلى البر ، ومن بعض المدن إلى العاصمة، فعدل رشوان عن الفكرة .

وفي يوم شاور جميل رشوانا ، في موضوع زواجه من ناريمان ، وحدثه عما جرى بينهما من أحاديث ، فلم يمانع رشوان بذلك ، ولكن قال له :

دعني أراها مجددا، وأظن إني لمحتها في السناك ، لكني لم أدقق بها .

والتقى بها في المطعم ، وقد أتت لتشرب القهوة مع جميل ، و بنظره الثاقب وخبرته الواسعة ؛ اكتشف أنها من خضراء الدمن

ومرشحة للخيانة بسهولة ، وربما من مدمني الحشيش ، فلهؤلاء امارات ، يعرفها خبراء الإدمان .

وقال ساعتها في نفسه :

" لقد وجدت مروجا للأصناف بين النساء، وكأنني أفتح دكانا متحركة للترويج ، في سوق النسوان ، إنها التي ستروج لي الأصناف ، وتصلح ملجا دافئاً ، عند الحاجة ، أو عند تغير المزاج، أو المال من جميل " .

فقال الجميل :

- تزوج الفتاة ، إنها جميلة وراقية ، ومن مجتمعك المخملي الذي تحب ، اعقد عليها من الغد .

وفي الغد عقد عليها . وقدمتها له أمها على طبق من ذهب عله يضبطها . وعل الزواج يعصمها من الإدمان ، وانتقلت إلى بيته بدون كلفة تذكر، وتزوجها ، وزالت عنه الوحشة ؛ ووجد فيها موئلا للسكينة والراحة .

وبعد شهر صار رشوان ، يزورهما في البيت ، فيرحبان به، وغالباً ما يجتمعون على طاولة ، يتعشون مع زجاجة من الخمر، ومزيد من البهجة والرغبة . ووضع لهما الحشيش في سيكارات ملغومة ، فاستعذبوا الطعم لكنهما لم يتعاطياه ، إلا في عشاء مع رشوان ، وبحضور الخمر أيضا، ثم صار يزورها في غياب زوجها، وأعطاها لفافة تبغ ملغومة بالمخدر الثقيل فاستحسنت الصنف وحلقت مع الغيوم الوردية فوق المحيطات

وقال لها :

- ازودك به مجانا ، على أن تروجيه بين النساء الراقيات .

ففعلت وأوصاها بكتمان الأمر عن جميل ، وأن هذا سر لا يجوز فضحه، وعقوبته الخنق أو الذبح ، فامتثلت ووقت بالوعد خوفا ورغبة.

وفي يوم أتاها ، وكان جميل في المطعم - الذي تحول إلى خمارة - واعطاها قليلا من البودرة البيضاء ، إنه المخدر الأعلى ثمنا ، والذي يسبب إدماناً سريعاً يصعب تركه ، وربما يستحيل فشعرت بسعادة ونشوة هائلتين ، لم تمر بهما قبلا، فعانقها ، وضاحعها

على السرير الزوجي واستمرات الفعل ، وتعلمت منه أشياء فاحشة، وفنونا من الموبقات جديدة عليها ، وداومت على العلاقة التي اقترنت بالمخدر الجهنمي ، والحب المحرم ، وصارت تتوسل إليه أن يزودها باستمرار ، ببودرة السعادة .

وحول رشوان المطعم إلى خمارة ، سماها خمارة البحر الهائج) ونشط عبود الأبرص في ترويج مخدراته من خلالها، وكثر المروجون الذين عملوا تحت إمرته ، فهبطت ثروات اسطورية على رشوان ومعاونه .

وطالب جميل رشوانا برحلة بحرية ، كما كانا يفعلان في أول أيامهما الرومانسية .

فقال له :

- البحر لم يعد أمنا ، وقذيفة واحدة لليخت تجعلنا طعاماً شهيا للأسماك، وأنت تزوجت ، فلم يعد بيتك خاليا .

لكنك عودتني على ما هو أقسى من الأفيون | ورميتني

وحيدا اجتر الذكريات !

سأعرفك بأصدقاء متنفذين، ومسؤولين ، وأصحاب جاه،

يعرفون قيمتك أكثر مني

وعرفه على أحدهم ، وهو من علية القوم، ومن السياسيين ، وقد أحبه هذا المتنفذ وتعلق به كثيرا لدرجة العبادة ، فكان جميل ، ينام عنده الليل بطوله ، تاركاً ناريمان ، لينام عندها رشوان ويؤنسها .

ثم صار رشوان ، يعرفه على آخرين من هؤلاء : بعضهم من أمراء الحرب والميليشيات فينال حظوة ومالا ودعماً ، وهكذا تحول جميل إلى سلعة بيد رشوان ، يبيعها للشاذين ويتقاضى عليها الثمن ، فانتقل جميل من يد إلى يد ، وأدمن المخدر، وسقط في حالات من الضياع ، ليس لها قرار ، وعاد يوما إلى بيته ليلا ، بعد أن ألغى صاحبه موعده لأمر جلل ، يتعلق بالاشتباكات بين الميليشيات، وعندما فتح باب غرفة نومه ، رأى رشوان و ناريمان في سريره عاريين ! لم يطلق كلمة ، لم يثر ، أو يرتجف ، أو يهتز له جفن ! كل ما عمله ، أنه أغلق عليهما الباب بهدوء وذهب إلى الخمارة ، لينام على أريكة جلدية سوداء ، تبخرت النخوة والكرامة، وانزلق جميل إلى جرف هار .

اثرى رشوان ثراء فاحشاً خلال سنتين ، في ممارسة تجارة السلاح ، إضافة إلى تجارة الأفيون ، وفعل ذلك ونجح بدعم من علية القوم الذين تعامل معهم ومع المليشيات ، وصار رشوان أحد أثرياء الحرب في لبنان .

وفي يوم مرض فيه جميل ، واعتل ، و ضعف ، واصفر لونه ، وصغرت عيناه ، وانطفأ بريقهما ، فعرضه رشوان على طبيب مختص، وبعد الفحص والتحليل ، تبين أنه يحمل فيروس الإيدز وأخبر ناريمان بذلك .

وقال لهما الطبيب :

- إن أيامه معدودة .

فوضعوه في غرفة خاصة من البيت ، وأغلقوا دونه الباب، وصارت ناريمان تقدم له صينية الطعام ، وتولى هاربة بعد أن تقفل الباب مجددا ، ولم يلبث سوى شهرين حتى مات .

واتصل رشوان بأم جميل في دمشق ، وقال لها :

- إنني أسف أن أخبرك خبرا ليس سارا، ولكنه يرفع الرأس.

أه يا إلهي ! أفزعتني ما الخبر المحزن ، والذي تقول أنه يرفع الرأس ؟

- إن جميل قد استشهد ، وهو يدافع عن أرض لبنان !

فاضت روحه على أغلى أرض ، وروى بدمه ترابها !

من اغتاله ؟ ولم اغتالوه؟ ، إنه ليس من هؤلاء ولا من أولئك؟

- اغتاله الإسرائيليون وهو يدافع عن لبنان، افرحي ابنك شهيد ! وأغلق الهاتف.

انهارت إلى الأرض وصرخت ! يا ويلتاه ! فقدت فلذة كبدي، أنا التي أضعتك يا جميل ، وكان عليّ أنا أتركك مع الكلاب ، الذين نهشوا لحمك ولعقوا دمك ، عديلة الأقرع ، تلك الأمية؛ كانت أشد وعيا ، وأكثر تبصرا مني ، ولكن ماذا يفيد الندم ؟ وقد فارقت وحيداً غاليا ، لم أعرف كيف أحافظ عليه ! فأي أرض تحضن جسدك ؟

وكذلك فعلت أخته ، وجدته وعلا النواح وأخبروا أخاه فحضر، وحاول جلب جثمانه لكن رشوان أجابهم :

دفناه في أرض تحتلها إسرائيل الآن

طيب عزيز خاطرهن ، وتعهد بكل مصاريفين . وصار يزورهن مساء كل يوم ، وكذلك كانت تفعل أم عزيز ، كما أخذهن إلى بيته، وتعرفن على زوجته الدكتورة رضية.

في هذه الأثناء ، كان رشوان وعبود الأبرص ، يقومان ببيع السلاح إلى الميليشيات ، بعد أن استطاعا أن يتعاملا مع جهات أجنبية وإسرائيلية .

فكانا يأتيان بالسلاح ، ويضعانه في الفرن الذي أوقفوا العمل به ، وصار أحد المستودعات لبيع السلاح والذخائر ، وقد تسلحت به ميليشيات تعاملت مع إسرائيل ، واشترت أسلحة ، وذخائر بل واعتبرتهما جزءاً من تنظيمها ، وأغدقت عليهما الأموال ، وبالمقابل فإن المليشيات الفلسطينية ، والميليشيات التقدمية والإسلامية؛ كانت ترصد تحركات رشوان وعبود الأبرص، وفي إحدى الليالي هاجموا مستودع الفرن ، وكان رشوان وعبود بداخله فقتلوهما ، وأخذوا السلاح والذخيرة ، واستولوا على مستودع الفرن، واحتلوه ، وأقاموا فيه نقطة استناد ، وحاجزا مسلحاً ،

تاركين بعض عناصرهم فيه ، كما احتلوا خمارة البحر الهائج . والتي كانت فيما مضى تدعى (سناك البحر) ، والتي أمضى جميل فيها جزءا من عمره ، وشهدت مغامراته ونزواته وأخيرا ، شهدت سقوطه ، كما كانت المكان الذي تعرف فيه على ناريمان ، التي خانته واشتركت بتجارة الحشيش مع رشوان ، وهكذا قضي عليهما وبقيت أموالهما في المصارف الأجنبية ، ونهبت المليشيات كل ما ملكوا وحازوا عليه

ووجدت أم جميل من أخبرها بموت رشوان، وأكد لها احتلال الفرن والسناك ، وذلك عن طريق أبي رياض ، الذي حاول نقل تجارته إلى دمشق ، وفعل بتشجيع من عزيز ، وافتتح محلا راقيا لبيع الألبسة ، في سوق الحميدية، وقيل : إن عزيزاً . قد ساعده في هذه الخطوة وأمده بالمال ، كما أمن له مسكنا لانقا في المالكي، وكان يلتقي به مساء كل يوم في المقهى، ويسهران مع مجموعة ثقافية وفكرية، وقد تردد على مجلس هذه المجموعة، الشيخ الحكيم أدهم العنتبلي ، وقيل : إن أبا رياض في أواخر أيامه قد لازم الشيخ ، وأعجب بحكمته وأصبح من المقربين له ، وإنه قد أمضى بقية عمره في دمشق، ولم يعد إلى بيروت إطلاقا ، إضافة إلى ذلك ، فإن أم عزيز كانت تزور ضرتها نبال ، وقد توطدت الصلات بينهما ، وحزنت كثيرا لموت جميل ، الذي

اعتبرته ابنها ، لكن أم جميل في قرارة نفسها ؛ كانت تعتبر أن عديلة الأقرع أقل منها حضارة ، وتمدنا لكنها أكثر حظا ..

بدأت دارين تبحث عن مركز حلاقة و تجميل ، لتعمل فيه، وأصابها شيء من قناعة ، بأن تعمل في مركز تديره امرأة ، خير من أن تعمل تحت إمرة رجل، خوفا من التداعيات ، وأن عليها أن تكون سمعة حسنة لم تنلها في لبنان ، ووجدت ضالتها في القصاع عندما دخلت وامها ليقصا شعرهما في صالون تملكه سيدة ، وفتحت دارين حديثا مع صاحبة الصالون ، أفهمتها أنها تجيد القص، وتحمل دبلوما في التجميل ، وأنها تملك خبرة عملية، من خلال عملها في مركز جورج البارد ببيروت ، والذي أمضت فيه فترة لا بأس بها، واتفقتا على أن تعمل دارين عندها ، تحت الاختبار لمدة

شهر ، وبعدها وعلى ضوء الخبرة، تحدد لها راتبا شهريا ، وقد سرت دارين بعد عودتها للبيت من هذا الانجاز

وقالت لأمها :

-ليست الغاية من عملي في الصالون كسب المال ؛ فأخي عزيز قد غمرنا بكرمه ، ولم ينقص علينا شيئا ، وإنما الغاية الخروج من العزلة والكأبة ، فأنا أريد أن أرى الناس ، ويروونني وما زلت في مقتبل العمر ، ومن حقي أيضا أن أتزوج ويكون لي بيت وأطفال ، وإذا بقيت في هذه الشقة محبوسة هنا ، فلن يقطن بي أحد .

فوافقتها على فكرتها .

دارين في القصاع في صالون الأميرة الشامخة وتديره هيفاء النونو ، صبية ، طويلة سمراء ، جميلة ، يشع من عينيها السوداوين بريق الذكاء، وبسرعة أيقنت هيفاء أن دارين متمكنة من عملها ، وتستحق راتباً مجزيا ، وتكونت بينهما صداقة وألفة ، وصارتا في أوقات الاستراحة ، تجلسان في غرفة ملحقة بالصالون، على شكل مكتب ، مفروش بأرائك جلدية سوداء، ومزخرف بالجبس ، والأضواء متداخلة بتنسيق بديع ، وهو مكان

مريح للأعصاب ، تستخدمه هيفاء في بعض الأحيان للاستلقاء ،

أو القيلولة ، أو استقبال الضيوف الأعزاء

قالت هيفاء لدارين مرة ، وهما تحتسيان القهوة بعد عناء العمل :

دارين أنت جميلة ، وذكية ، وتحملين أكثر من مؤهل ؛

فلماذا لم تتزوجي إلى الآن ؟

اضطربت قليلا ثم تابعت : الغربة والتنقل منعاني من ذلك ، وأهلي لا يريدون أن أتزوج من لبناني ، وهذه وصية أبي ، ولم أدر ما غايته ؟ ولقد عشنا عند جدتي في بيروت منعزلين ولم النفس بحياة اجتماعية واسعة أو عميقة ، وها قد عدنا إلى سوريا، وانتظر من يطرق بابي، فأقبل على الفور ، إن أولاد أخي عزيز يفرحونني بلقائهم ، وتتحرك في عاطفة الأمومة ، فتدفعني للتمني بأن يكون لي أولاد مثله .

قالت هيفاء :

أخي مثلك ، يبحث عن فتاة ليتزوجها، ولكنني لن أكتم عنك أمرا ، فلقد رفض من بنات كثيرات - هو لا يشبهني - إنه قصير وضعيف الجسم جدا ، لكنه ليس عليلا بل حسير البصر، ويستعيض عن ذلك بنظارة سميكة ، ليس بالوسيم، ولكنه ليس دميما بدرجة كبيرة ، ويعمل حاليا أجير حلاق في القنوات ، ويمر بي أحياناً ، خاصة يوم الإثنين - يوم عطلتنا .

- هل تداومين يوم العطلة في الصالون ؟

في الحقيقة نعم ، لأن خبيرة فنية في عمل (الباروكات) تزورني لتعلمني كيفية صنعها وحبكها ، فأنا أريد أن أطور صالوني ، وأخدم زبائني وإذا حضرت أنت يوم الإثنين ، نشرب

القهوة مع أخي ، وترينه وجها لوجه ، لا تقولي الآن ، أرفض أو أقبل ، اعتبري الجلسة نوعاً من التعارف ، وأحيانا تكون الصدقة خير من ألف ميعاد - وتفعل المعجزات التي لا يتوقعها المرء . إن الرجل لا يعيبه شكله ، ومادامت الغاية من الزواج إنجاب الأطفال ، فكل رجل يصلح للزواج إلا إذا كان عقيما ، ولا أعتقد أن أخي عقيم ، إلا أنه في الوقت نفسه ، ليس كاملا .

سأزورك يوم الاثنين من أجل أن أتعلم أيضا صنع) الباروكات) إذا لم يكن عندك مانع، ونشرب القهوة معا ، فأنت صديقتي قبل أن تكوني ربة عملي ، وبالتالي فإن أخاك بالمحصلة يكون مثلك صديقاً

وحضرت يوم الاثنين وجاء أخوها سعيد ، كان قمينا لدرجة واضحة ، ونظاراته الطبية سميكة كأنها كعب فنجان بلوري ، تظهر من خلالها عيناه ، مفتوحتان ، مفزعتان ، مخيفتان، وتنقصه الثقة بالنفس ، لدرجة كبيرة فهو دائما في حالة ارتباك ، يفتح فام ضاحكا بدون سبب ، فتبدو البلاهة على وجهه ، تدعو الآخرين للاشمئزاز أو في أحسن الأحوال للإشفاق ، وانتهوا جميعاً من شرب القهوة ، وغادر سعيد المجلس وبقيتا لوحدهما ، فقالت هيفاء ما رأيك به ؟

- شاب كسائر الشباب ، ولا يفترض بالشاب أن يكون جميلا ، وذو ملامح أنثوية ، حتى يقال عنه وسيم أو مرغوب ، المهم أن يكون مسؤولا وصاحب ضمير

- من هذه الناحية فهو جدي وصاحب ضمير ، ولكنه قليل الحظ ، وربما تتحسن أحواله إذا اقترن بفتاة جميلة ذكية مثلك .

تأملت دارين هنيهة ، وقالت في نفسها :

مثل هذا القميء المرتبك ، يصلح لك يا دارين ، جزاء وفاقا لما ارتكبت من موبقات وآثام، أنت الآن امرأة ، وقد ذهب جمران بعذريتك ، وليس من يستر عليك إلا أمثال سعيد، إذا تزوجته ثم طلقته تتالي الأعذار المسوغة لفقدان ما فقدت، وسعيد هذا ، لن يعرف الفرق بين البنت والمرأة وعندما يخلع نظارته فلن يرى شيئا ؛ وضحكت في سرها ! وقالت في نفسها :

ربما يتزوج ، ونظاراته على عينيه وأردفت تخاطب نفسها : (حتى لو فعل فإنه لن يدرك من الأمر شيئا)

ولاحظت هيفاء الابتسامة الخفيفة على وجهها ، فقالت :

لماذا تبتسمين ؟

- لا شيء ، لكني قلت في نفسي : إنك امتهنت الحلاقة ، واحترفها أخوك فمن دلكما على هذه المهنة ؟

انت (سكرتيرة متخرجة من معهد (السكرتاريا)، ومع ذلك أصبحت حلاقة ماهرة فمن ذلك على الحلاقة ؟ !

أنا أهوى التجميل والحلاقة أكثر من الإدارة الأعمال ، عملت بهوايتي .

جواب دبلوماسي ، يدل على ظرف وأناقة

حكت لأمها وجدتها عن سعيد وصفاته

قالت لها الجدة :

الرأي لك ، والرجل لا تعيبه قماءته ، والزواج في هذه

الأيام نادر ...

قالت أم جميل :

فى حالة سعيد تتيسر ، أمورك بسهولة ويسر ولا تحتاجين لعناء أو تدبير.

قيمت دارين قصدها ! لكن الجدة لم تفهم شيئا، فهي لا تدري

ما وراء الأكمة !

قالت دارين تخاطب أمها

هذا ما يعجبني فيه البصر الحسير ، والغباء الواضح ، هما صفتان من أجلهما عشقته .

ضحكت الأم وقالت :

اجتمع الخبث والجمال فيك ، أعانه الله !

قالت الجدة :

- لا أفهم ما تقولان هل تتكلمان بالألغاز ؟

- أصبحت حياتنا كلها لغز .

قالت الجدة :

الزمن كفيل بحل كل لغز .

قالت الأم :

- أخبري هيفاء موافقتك ، وحددي موعد الزيارة .

ستفرح هيفاء ، وقد لا تصدق ، ستقول حدثت معجزة ، وسعيد محظوظ .

في الصباح شربت قهوتها . ووضعت زينتها وقررت الذهاب إلى الصالون سيراً على الأقدام ، من الشعلان إلى القصاع . كان الجو ربيعيا وغطت أسوار البيوت عرائش الياسمين والأزاهير في الحدائق الدمشقية - مغمورة بأشعة الشمس الدافئة ، بينما سمت أشجار معمرة على الأطراف . كانت شاردة تفكر في مستقبلها ، قد يكون سعيد محطة، أو إرهاصا لحياة قادمة ، سعيدة وعظيمة ، هي لم تخلق لتكون على هامش الحياة ، فقد أوتيت من الجمال والذكاء؛ ما يؤهلها للعب دور ذا شأن ، على مسرح الحياة مليء بالسعادة والتفاؤل وصلت الصالون . فاستقبلتها هيفاء بترحاب زائد ، وجلسا في المكتب الملحق ، يشربان القهوة مجددا .

وقالت لها هيفاء :

هل أخذت القرار النهائي ؟

نعم ، وإنني أوافق على خطبة تكون مدخلا ،

ليدرس كل منا الآخر .

وحددت لها مساء الخميس موعدا لزيارتهما، من أجل طلب يدها ، وفي الموعد، حضر سعيد واخته ، وأخوه هزاع الذي يكبره بأكثر من عشر سنين ، وهو ربعة نصف ، ممتلئ يعمل في تنجيد سرج الخيل ، بسوق السروجية متعجرف لدرجة التسلط ، ومعتد

بنفسه لدرجة الغرور ، ويعتبر نفسه ولي أمر سعيد ، وقد صار هزاع بعد موت أبيه عميدا لتلك الأسرة الصغيرة.

وكانت أم جميل وداريـن ، قد أخبرنا أخاها عزيزا ، لحضور المناسبة ، ولمحتا إلى أن شخصاً اسمه سعيد ، جاء مع أسرته ، ليطلب يد دارين ، فعزيز الآن بمثابة الأب والولي الدارين .

امتلأت غرفة الضيوف ، وجاءت دارين بأبهى الحلل ، تقدم القهوة ، في قرارة نفسها تقززت ، ولكنها نجحت في إخفاء تقززها ، وتبادل هزاع بعد التعريف بنفسه ، وبأفراد أسرته الذين حضروا معه ؛ كلمات المجاملة وبعض الأحاديث العامة

ثم قال هزاع ، الذي نصب نفسه وليا على سعيد ، مخاطباً عزيزا :

- يشرفنا في هذه الليلة الطيبة المباركة ، أن نتقدم بطلب يد المصونة ، صاحبة العفاف دارين إلى أخينا الشاب سعيد ، ونرجو أن نحظى بشرف الموافقة والقبول .

- قال عزيز وهو يتأمل سعيدا - الذي جلس كالأيتام ، في مأدبة اللئام - لا يبدي حراكاً ولا يتكلم وكأنه قد أرتج عليه .

أهلا بكم شرفتم وانستم ، الخطبة كما تعلمون ، تبدأ بطلب تتعقبه مهلة ، لاستمزاج رأي الفتاة ، والسؤال عن العروس4 وأسرته، أمهلونا أسبوعاً ، وسنعطيكم الجواب .

.....

4-عروس: في العربية يستوي فيها المذكر والمؤنث والمثنى عروسان

امتعض هزاع ، لكنه أخفى امتعاضه ، فقد كان يظن أن كل شيء منته ، وأن القرار قد استقر على سعيد ، فاستأذن وأسرته وانصرفوا .

بعد خروجهم سأل عزيز دارين :

هل يعقل أن تتزوجي سعيداً هذا ، وأنت الفاتنة الجميلة ، الذكية اللعوب ، أنت تستحقين أفضل الرجال ! هل ضاقت بك الشام وبيروت ، أم أمحلت الدنيا وفني الرجال ! فاتجهت إلى أشباه الرجال ؟

هو شاب كبقية الشباب ، والدمامة لا تعيب الرجل .

- ليست المسألة مسألة دمامة أو وسامة، إنها مسألة تكافؤ ،

سواء في التعلم ، أو العمل أو الثقافة ، وصمت لا يتكلم بكلمة أخرى ، وكان الأمر لا يعنيه ، ثم تابع بعد قليل : هو ليس بكفء لك ، وأنا كاخ أكبر ، وبغياب الأب أصبح وليا ناصحا ، ولكن في نهاية الأمر القرار النهائي لك وحدك ..

- لقد رضيت به زوجا، ومع الأيام يتطور و يتثقف ، وسأساعده في مصروف البيت وغايتي الآن إنجاب الأولاد ، لأنني بحاجة مفرطة إلى عاطفة الأمومة .

على كل حال ، لا بد أن أسأل عنه ، وعن أسرته ،

وأشاور أهل الرأي ، فالزواج ليس لعبة مزاجية ، نمارسها متى

رغبنا . إنه مصير ومستقبل وحياة .

قالت الجدة :

إن ما تقوله يا بني هو الحقيقة عينها ، وإنك يا عزيز ، جدير بأن تكون عميدا لهذه الأسرة ، ومرجعا لها ، وعلى كل فرد منا أن يستنير برأيك وحكمتك ويعمل بهما .

قالت أم جميل :

- دارين عاقلة راشدة ، وهي مسؤولة عن اختيارها ، وإذا حكم النصيب تختفي المسوغات، ويسكت العقل ، ليكن لها ما تريد ، ورأيك يا ابني عزيز على الرأس والعين ، ولكن اتركها لمصيرها.

خرج عزيز وأمه من البيت ، مستغربان ومتعجبان ! لأن دارين وأمها لا تخضعان لعقل أو منطق ، ولا لمشورة أو حكمة .

وفي مساء اليوم التالي ، حضر الشيخ ادهم العنتبلي إلى القهوة ، وكان يتردد في الآونة الأخيرة كثيرا ، إلى مقهى عزيز ، فقد أعجب بمثقفيها وأكاديمييها ، وكتاب يرتادونها يوميا للنقاش ، وشحذ الفكر ، يجلس إليهم عزيز صديقاً، وليس كصاحب مقهى ، أخذ الشيخ مجلسه المعتاد، فانضم إليه عزيز مرحباً ، وجلس .

قال عزيز :

- أريد حكمتك في قصة جرت .

- أقصصها علي ، وسأوافيك بالجواب .

- فتاة ذات جمال وذكاء ، يتقدم لها رجل قميء ، ضعيف ، حسير البصر ، يعمل أجير حلاق ، وليس لديه أية كفاءة ، ليكون جديرا بها، لكنها قبلت به فما الرأي عندك ؟

قال الشيخ الحكيم :

لأمر ما باعث امراء ، رزا مقشورا برز غير مقشور .

فهم سعيد ما يرمي إليه الشيخ ، فقال :

لقد قرأت قصة المثل في كتاب مشهور ، وكان الرز ، قد بالت عليه الفئران، ففضلت المرأة الرز غير المقشور عليه ، ولكن أهل الفتاة طلبوا رأيي ، يريدون النصيحة ، المقشور .

فيماذا أنصحهم ؟

الدين النصيحة ، فإن لم يقبلوا بها تكون قد " جنت على نفسها براقش " افهمهم ضرورة توفر الكفاءة ، والود ، والحب ، واستلهام العقل والموضوعية .

وذهب عزيز إلى القنوات5 ، يسأل عن سعيد وأسرته ، وكان يعرف صديقا في ذلك الحي .

فأجاب الصديق :

إن سعيداً ضعيفاً بسيطاً ، يتسلط عليه أخوه هزاع . وليس له من الأمر شيء في هذه الحياة ، وبالكاد يكسب عيشه ، كأجير حلاق، وقد تقدم من كثير من بنات الأسر ، فرفضوه مما عزز قلة الثقة بنفسه وأحبطه . وهو بالأصل فيه لوثة، وله أخت عندها صالون حلاقة ، بارعة ونبيلة تصرف عليه ، وتساعده ، وتدير أموره برفق ، بينما أخوه هزاع ، يسيره بفوقية وغطرسة ، أما سمعتهم الأخلاقية فلا غبار عليها .

ونقل عزيز ما سمع إلى خالته وأخته دارين.

.....

5- من أحياء تمثل القديمة 81

قالت دارين :

مادامت سمعته لا غبار عليها، فكل شيء يمكن تعويضه مستقبلا ، سأساعده في الكسب ، وقد أتوظف مستقبلا في الصباح ، وأعمل في الصالون في المساء .

أنت يا أختي في أول عمرك ، وأمامك فرص كثيرة ، وإذا ارتبطت به ، ، فمن الصعوبة أن تغيري حياتك فيما بعد ، المرء يغير مهنته ، ويطور ثقافته ، وقد يحصل على شهادات جديدة ، بالصبر والداب والاجتهاد ، ولكن تغيير الحياة الزوجية كارثة ، قد لا يستطيع المرء تجاوزها .

قالت دارين :

- أنا مستعدة لتحمل المسؤولية ، وهذه حياتي وأنا حرة بها .

- لقد قدمت النصيحة ، وبينت وجهة نظري، ومسوغات الرفض ، ولكنك مصرة على الأمر ، فليكن لك ما تريدين .

وتمت إجراءات الخطبة بيسر ، بعد أن أعلنت دارين ، قبولها النهائي والأكيد لسعيد، وراعت حالته المادية البسيطة ، فلم تطلب الكثير. أما سعيد فلم يصدق ما جرى ، لكنه اعتقد أن الحظ قد ابتسم له إلى الأبد .

كانت حفلة الزواج بسيطة ، كما أرادت دارين ، وحضرها الأهل ، وبعض الأقارب والمعارف ، في صالة متواضعة ، وانتقلت إلى بيته الذي استأجرته له أخته هيفاء ، في

شارع بغداد وهو طابق أرضي لعمارة ، تضم أربعة طوابق ، وكانت ليلة الدخلة ، انصرف الأهل جميعا وبقيت هي وهو .

احتار في أمره وارتبك .

ثم قال لها :

ارجو أن نرتاح في هذه الليلة ، فلا نقوم بأي عمل ، لأننا قد لقينا من أمرنا نصبا : حفلة الزواج ، توديع الأهل ، المشاوير ، فتراكم التعب، فلننم هذه الليلة ، وغدا أمر آخر .

وفي الليلة التالية ، انتابه الخجل والارتباك، ورغم مساعدتها له ، لم يستطع القيام بما يتوجب عليه .

وعلمت أخته هيفاء بالأمر. فقالت الدارين :

امنحيه وقتاً إضافيا فأخي خجول !

ولم تكن المسألة مسألة خجل ، أو ارتباك بل هي مسألة فقدان الثقة الكاملة بالنفس ، والانهيار أمام الجمال الصارخ ، وضعف في الجسد شديد .

ومرت شهور على هذه الحال ، ولم يستطع القيام بإتمام الزواج كما يفعل الناس ، فاتفق معها على أن يقولا للأهل : إن الأمر قد تم ، فظن الأهل أن الأمور قد فرجت ، ومضى زمن ليس بالقليل ، استطاع سعيد في ليلة ، أن يقوم بالفعل بعد جهد جهيد فظن أنه ملك القلعة ، واسترد ثقته بنفسه قليلا ، وشجعته هي رافعة من معنوياته، وصار يعاشر

زوجه كما يعاشر الرجال زوجاتهم ، ولكن بضعف ، وقارنت بينه وبين جورج البارد ، فرأت الأداء مختلفا جدا ، فأصابها فتور حزين ، ولم تكن لتظن أنه

بهذا الضعف والهزال ، وتذكرت كلمات أخيها عزيز لكنها و قالت

في نفسها :

لابد أن ينجدني القدر في يوم من الأيام .

حاولت البحث عن وظيفة ففشلت وقالوا لها :

الوظيفة تحتاج لدعم .

وقالت في نفسها :

- من أين يأتي الدعم ؟ وأهل زوجها ليس لهم من الدعم شيء، ولا يعرفون متنفذين أو مسؤولين ، فتركت الأمر للمصادفة.

وتطور سعيد في مهنته ، وقال له معلمه أبو حسبو :

- عليك يا سعيد ، أن تتقن المينة فأنت الآن متزوج ، ومسؤول وغدا سيأتيك أولاد .

- المشكلة يا معلم أبو حسبو ضعف نظري، ولولا النظارات لما رأيت سوى الغبش .

اشتر نظارات جديدة ، ومارس المهنة برغبة و حب ، وستصبح صاحب صالون حلاقة رجالية عليه القيمة .

-سأعمل بنصائحك .

وصار سعيد يقص للزبائن ، في غياب معلمه أبو حسبو ، وأتقن المهنة إلى حد ما . وكان يسال كل زبون يقص له شعره

هل تعرف مدير التعيينات والتوظيف ؟

فيقولون له :

لا ، ومن أين لنا معرفته ، أو الوصول إليه.

فيقول في نفسه : (لابد أن يأتي يوم وأتعرف إليه عن طريق أحدهم ، عندها أحقق أحلام دارين في الوظيفة)

5

كان رهوان الأزدي سيكوباتيا6 ، عدوانياً شرساً ، ولد في مضارب البادية قرب الضمير، تلك البلدة الصغيرة شرق دمشق ، وعاش شظف العيش ، وشح البيئة ، وقساوة الأب ، وصارع الذئاب ، والضباع ، ورعى الأغنام ، تكونت لديه قدرة هائلة من العدوانية في شخصيته ، وطاقة أكبر من الفحولة في كيانه ، وشاء له القدر أن يصبح ضابطاً ، ويتسلم الفرقة الإسبارطية 7 نجح في قيادتها وبرع في إدارتها ، وذاع صيته وفرضت هيبته ، إضافة إلى أنه كان من الحزبيين الذين يحكمون البلد ، وكان من ذوي المقامات الرفيعة ، والمكانة العالية ، كان جنوده - وحتى رؤساؤه -يخشون شراسته و عدوانيته ، صعب القيادة ، لا يلين ، وتميز بجرأة فاقت التهور ، انزعج مرة من رئيسه - وكان عميدا -فضربه و هشمه أمام مرؤوسيه .

.....

6- عدواني بدرجة مرضية .

7- وهي قوة خاصة في الجيش تتميز بالخشونة والعنفوان والطبيعة الاقتحامية والمهام الصعبة ، نسبة للجيش الاسبارطي في اليونان القديمة.

غضبت عليه القيادة ، لكن ماضيه وخدماته ومركزه الحزبي، شفع له من الانتقام ، فخففت العقوبة بتحويله إلى وظيفة مدنية ، ولكنها وظيفة ذات شأن خطير ، ومنصب يحسده عليه الكثير استلم منصب مدير التعيينات والتوظيف ، فأصبح الجميع يتمنى التعرف إليه والتمسح به ، ولم يفقد عدوانيته بانتقاله للسلك المدني ، بل نقلها معه، فضبع8 ، مرؤوسيه ورؤساءه ، من الموظفين المدنيين ، وصارت المؤسسة مثال الانضباط والطاعة ، لا حبا بالنظام أو حمل المسؤولية ، ولكن خوفا من سطوته وعدوانيته، التي لا يعرفون متى تنفجر، فكانوا دائماً في تربص وخوف دائمين.

إضافة إلى ميزاته السابقة ، فقد كان مهووسا في الجنس ، والمغامرات النسائية، ومعاقرة الخمر ، بعضهم وصفه بأنه زير نساء ، البعض الآخر عزا ذلك إلى فحولته الطاغية، وتربيته الإسبارطية، وقبلها تأثير البيئة القاسية التي نشأ فيها. بينما قال عنه آخرون ومنهم طبيب الوحدة العسكرية : (إن سلوكه نتيجة استفاقة عاطفية مبكرة) .

ذهب رهوان الأزدي إلى صالون أبي حسبو في القنوات ، ليقص شعره وسبق له أن قصه في هذا الصالون أكثر من مرة ، قبل أن يتوظف سعيد عند أبي حسبو ، وكان سعيد خارج الصالون عندما قص رهوان في المرات السابقة . فاعترت سعيد رهبة بدخوله ، لأنه كان متغطرساً ومتعجرفا وذا هيبة .

.....

8- عبارة فصيحة يستعملها العوام كناية عن الشخصية القوية

وبادره بلهجة فيها من العنف والأمر ما يكفى . فوم منظره يوحي بسوء مخبره !

- ابن أبو حسبو ؟

ارتبك سعيد من نظرة الزبون الحادة ، ومن عدوانية كلامه القاسي ، وملامحه الاقتحامية .

فقال متلعثماً :

أبو حسبو مريض ، وأنا أقوم مقامه .

هل أنت حلاق أم ناطور دكان ؟

ارتبك سعيد ، وأجاب .

بل أنا حلاق ! أعمل في الصالون ، وأحلق للزبائن ، في غيابه وحضوره .

استلقى رهوان على كرسي الحلاقة الناهض، نافشا ريشه كطاووس ، شامخاً بأنفه كقائد منتصر.

قال السعيد :

- ما اسمك اليوم ؟ يا هذا ، بماذا ينادونك ؟

لم يسمع سعيد مثل هذه اللهجة الهازئة ، ولم ير مثل ذاك العنفواني المتعجرف ، إنه يلبس ثياباً فاخرة ، ويدل مظهره على أنه صاحب مركز رفيع ، لا مجرم حقير ، أو متعد ، أو صاحب سوابق . فأجابه :

سعيد النونو يا سيدي

ابتسم رهوان ، وظهرت ابتسامته على وجهه ، يفعل وقع اللقب ، الذي يعني بالعامية الصغير لدرجة متناهية . فارتاح سعيد قليلا !

ثم قال رهوان :

انت النونو ؟ ! كنت أسمع بهذه الكلمة ، ولا أدري أين النونو ، واليوم سعدت برؤية النونو وكأنك يا سعيد ، اسم على مسمى ، وضحك ضحكة مجلجلة .

هل تأذن لي يا سيدي بالتعرف إليك

- أنا مدير التعيينات والتوظيفات ، رهوان الأزدي .

بهت سعيد ، وتوقف متسمرا في مكانه ، ولم يصدق أذنيه ، وتعجب رهوان من تجمده الفجائي

فقال له :

مالك غبت وتسمرت ، وخرس لسانك وكأنما قد أصابك البكم ؟

تقول يا سيدي ، انك مدير التعيينات والتوظيفات !

- نعم الا تصدق ؟

بلى ، ولكني كنت أبحث عنك منذ زمن طويل ، وها أنت قد جنت بنفسك ، بدون وسيط أو دليل ، فيا لمحاسن الصدف .

- تبحث عنى ؟

- نعم أنا وزوجتي دارين ، هي قبلي تريد التعرف بك ، فهي تسعى لنيل وظيفة ، وقد درست في بيروت ، في معهد الإدارة

الأعمال ، وقيل لها إن الحصول على الوظيفة ، لا يكون إلا بالمرور عبر بوابة مديرية التعيينات والتوظيفات .

أدرك رهوان أن الرجل ساذج غر ، فمن تكون زوجته يا ترى ؟ هل هي على شاكلته؟ وما مدى جمالها ؟ ، وكيف رضيت بقزم دميم مثل سعيد ، ودفعه الفضول إلى اكتشاف كل ذلك .

فقال :

- الدراسة شيء والعمل شيء آخر ، ليس كل من درس ،

يصلح للتوظيف ، أو لتنفيذ ما درس ، السكرتيرة يجب أن تكون لبقة وجميلة ومتحركة ، إضافة إلى إلمامها بأصول إدارة المكاتب .

دارين جميلة جدا ، وتربت في بيروت فحملت لباقة اللبناني ، وتأنقه ، ولزوجة ألفاظه المطعمة باللغة الأجنبية .

كيف لقيتها ؟ أقصد كيف عرفتها ؟ ومن ذلك عليها ؟ وهل أحبتك فتزوجتك ؟

كل شيء قسمة ونصيب . ولقد تعارفنا بواسطة أختي هيفاء ، التي تعمل دارين في صالونها .

بدأ سعيد يقص شعر رهوان ، يقف أحيانا عندما يرد على جواب ، من سؤال يوجه إليه ، وكان رهوان مشغولا بالقصة الغريبة ، ومتخيلا شكل دارين ، وعندما انتهى سعيد من قص شعره، أصلح رهوان من لباسه، ناظرا في المرأة إلى شكله العام ، متفحصاً جودة الحلاقة من عدمها .

إذ يفاجا بقول سعيد :

- أدعوك يا سيدي، أن تشرفنا الليلة بزيارتك لبيتنا ، لتشرح

لك دارين بنفسها عن مؤهلاتها ، وعن أملها فى الوظيفة، وعنوان بيتنا واضح في شارع بغداد ، بجوار صيدلية النور الباهر

مد رهوان يده على جيبه ، وأخرج رزمة من النقود ، وقال :

وهذه الألف لك عربون - هذه المئة ليرة لأبي حسبو ، تعارف .

لكن هذا مبلغ كبير لا أستحقه .

- خذه ولا تجادل !

في الساعة الثامنة ، أكون عندك قرب البيت، تنتظرني أنت جوار الصيدلية ، لتدلني بدقة على الشقة التي تسكنها

ذهل سعيد من الاستجابة السريعة ، فالذي كان يبحث عنه منذ شهور ، تحقق بأقل من ساعة، والوظيفة الدارين أصبحت قاب قوسين أو أدنى .

اغلق الدكان مبكرا ، وحمل إلى البيت أنواعاً متعددة ، من الضيافات المتعارف عليها ، من أجل تحضير سهرة لائقة ، وفتحت له دارين الباب فوجدته محملا بالأكياس على غير عادته ،

أخبرها بما حصل ، وصعقت من الفرحة عندما اخبرها ، أن مدير التوظيفات نفسه ، سيحضر للبيت في الثامنة . فرحت دارين فرحا لم تشعر بمثله من قبل في حياتها ، ووجدت أن ما كانت تنتظره وتحلم به ، قد أصبح في حيز الواقع ، وعاد لها العقل من بعد الصدمة المفرحة ، فتفقدت ما جلب وقالت له :

ليس من اللائق ألا يكون الخمر حاضرا، فهؤلاء القوم ، يحبون أن تزين الموائد بالخمر، يشربونه بدل الماء ، اذهب واشتر زجاجة ويسكي وبعض المكسرات .

وخرج يحمل لائحة أخرى ، المواد إضافية كتبتها له ، وفور خروجه ، أخذت زينتها ، وتجملت ، واختارت أحلى أثوابها وحليها ، فستانا أخضر واسع الصدر ، منمنم الحواشي ، وفكرت بالأحاديث والأسئلة ، التي ستطرح من خلال السهرة ، وأعدت لها الأجوبة .

وعاد سعيد ، يحمل الخمر والمواد التي أمرته بإحضارها ، وكانت قد أعدت الثلج في وعاء أنيق ، قبيل الثامنة وقف سعيد كما أمره رهوان قرب الصيدلية .

سيارة فاخرة فارهة ، سوداء مسرعة ، كالقضاء العاجل ، توقفت فجأة ، وسمع صوت المكابح ، تصر على إسفلت الشارع أجفلت سعيدا. ترجل رهوان من تلك السيارة واتجه باتجاه سعيد ، وسلم عليه .

وقال له :

- هلم بنا إلى بيتك .

كانت غرفة الاستقبال ، مفروشة بأثاث وثير لكنه قديم ونظيف ، ولمح رهوان في صدر الغرفة، لوحة بالألوان ، منسوخة لرسام شهير، تضم سهولاً خضراء ، وجبالاً بعيدة زرقاء غامقة، ونهرا جاريا ، تحف ضفافه الخضرة والأشجار ، وتترقرق مياهه البيضاء على أرضيته الزرقاء ، وعلى ضفته اليمنى قامت

دارة ، أنيقة من طابقين ، يعلوها القرميد ، وفي جانب من اللوحة . أطفال يلعبون ، ومعهم كلب صغير . تذكر رهوان القفار التي رعت طفولته، وما آل إليه فيما بعد

لحظات و جاءت دارين ، تميس في مشيتها، تعدت العشرين أية من الجمال ، تأخذ بالعقل وتأسره ، طويلة بتناسق رشيق ، رمانتا صدرها قد أن قطفهما ، مرفرفتان اضطرابا ، وخصر نحيل ، يشتكى ارتجاج الكفل ، ويضاهى عنقها الشفاف الطويل الأبيض ثلجاً نقياً صافياً ، وروعتها المعجزة ، كانت في وجهها، تناسق هرموني بديع التكوين ، تزينه عينان شهلاوان واسعتان صافيتان ، تجمد من كان يرعب ويخيف. رهوان الأزدي مأخوذ بالسحر ! مندهش من بريق ألق العيون ! لم ينكسر يوما ، وها هو الآن ، يسقط أمام الابتسامة الأحلى .

وقف متعجبا من سخرية القدر ، الذي جمع ملكة - بهذه الروعة تحمل كل قداسة الجمال ورهبته - مع قميء مهزوز ، فزع العينين ، يغلفهما بزجاج سميك ، بإمكانها أن تصرع أقوى الرجال عزيمة ، وأن تغوي أشد الرجال تقى؛ ولكنها تحتمي بمن يحتاج لحماية ، فيا لسخرية الزمان .

مدت يدها مرحبة ، تدعوه للمصافحة فأفاق من ذهوله ! ولمست يده نعومة حارة ، وشعر بيدها تضغط قليلا على يده الصلبة ، فذاب فؤاده، وسمع الموسيقى الرومانسية في داخله ، تعزف أحلى الألحان ، وأجمل الأنغام ، فحلق في السموات العالية الصافية.

قالت :

شرفت البيت بحضورك ، هذه ليلة لن تنسى مدى العمر. وأنا الآن ، آمنت بان الملائكة قد تهبط الأرض ..

ضحكت بدلال ، فاهتزت خصلات تدلت على الجبين .

ثم استأذنت لحظات ، لإحضار القهوة، عادت حاملة صينية فضية ، عليها الفناجين الثلاث ، وانحنت أمامه ، لتقدم له فنجانه ، كان ثوبها الأخضر ، واسع الصدر ، يسمح بالظهور لربي الثلوج المشتعلة ، وأصبحت عيناه على مرمى بطنها البض ، فهاله بياض جزعي الثديين، وعمق مجرى العبير ، رابيتان من الياسمين ، يفوح منهما شذى مسكر ، فتخدر رهوان ، وتخيل نفسه في الجنان، تناول فنجانه شاكرا ، ووضعه على المنضدة أمامه ، بينما جلست دارين على بعد مترين ، تتأمله بعينين فاحصتين مرورتين.

قال رهوان وهو يخاطبها :

دار بيننا . لابد أن سعيداً ، قد حكى لك قصة تعارفنا، والحديث الذي

نعم حدث ذلك ، و إنني في الحقيقة كنت أبحث عن وظيفة، لكنني الآن عثرت على ما هو أهم منها ، إنها صداقتك التي لا تقدر بثمن، وتصبح الوظيفة إزاءها ، من سقط المتاع .

سر من إطرائها ولباقتها ، وقال :

- انت درست وتعبت ، ونلت شهادة تؤهلك لوظيفة في) الإدارة) ونحن في الحقيقة بحاجة ماسة إلى تطوير الكادر ، ولن

أجد أفضل منك في المؤهلات واللباقة والذكاء ، فاعتبري نفسك أول الشهر القادم موظفة في مديريتنا .

- يشرفني هذا، ويسعدني أكثر أن أظل ورعايتك . ، تحت نظرك

كان سعيد يسمع ويرى ، ولم يجد كلمات بمستوى ما نطقت به . ولكنه قال في نفسه : (لابد لي من كلمة للمجاملة على الأقل)

فقال :

دمت يا سيدي ذخرا لنا ، وراعيا دائما لشؤوننا ، وسنكون عند حسن الظن .

وأتت دارين بالمقبلات والمكسرات، وزجاجة الويسكي ، ووعاء الثلج ، فاشتعلت النار فرحة في نفسه ، مزغردة مبتهجة ، إنه ابتهاج الروح الظمأى للحب النادر ، توهج الجمال القاهر في روحه ، لم يدر كيف لمع كبرق ينذر بصواعق ومطر ، ولمعت عيناه ببريق خاطف ، فهمت دارين بسرعة ، شغفه بالخمر و تولعه بها، وعندها علقت عيناها بعينيه ، فسحره الألق الخرافي ، وملى نفسه بعلاقة خرافية الإيقاع .

وخرج سعيد من الغرفة إلى المطبخ ، وبقيا لوحدهما فمال

نحوها ، وقال :

لم أر مثل هذا الجمال القاهر ، والألق الباهر، أنت الملكة التي تجلى فيها كل الجمال الساحر .

أشكرك وكلك ذوق ونظر، لابد أنك تتميز بأنبل المشاعر .

مكانك في القصور الملكية ، فلم اخترت الأكواخ البدائية

تنهدت ، وقالت :

كل شيء قسمة ونصيب ، وما ندري ماذا يخبئ لنا الغد !

ستجدين في قلبي أفضل مكان ، وفي روحي شلالا من الرقة و الحنان .

في هذه اللحظات دخل سعيد ومعه بعض الصحون ، قال رهوان :

إنني أدعوكما غدا للعشاء في مطعم (فرسان الرغبة) سأكون بانتظاركما هناك في التاسعة مساء .

قالت دارين :

المحدد . يشرفنا هذا ، ونعرف المكان ، وسنلتقي غدا في التوقيت

كانت الزجاجة قد فرغت من سائلها الناري، وكانت النيران قد أفرغت في عروقه ، فصارت تغلي وتتمدد ، وفكر أن ينقض عليها ، لكنه تريث .

وقال في نفسه : في الغد أجمل ، وتكون الأمور قد نضجت واستوت)

وعندما نهض ليغادر صافحته دارين ، بيد بضة ، لكنها ضاغطة ، وعلق نظره بعينيها لحظات ، فسحبت يدها من يده التي أطبقت عليها بإحكام ، ففهمت ساعتئذ أن صنارتها الصغيرة ، قد اصطادت حوتاً كبيراً وصرعته

في الصباح حجز رهوان بمطعم (فرسان الرغبة) طاولة منعزلة ، ذات خصوصية تحيط بها من جهات ثلاث ، ديكورات تحجب النظر عن باقي الزبائن ، وقال للنادل :

- إكراميتك مضاعفة ، لكن عليك إعداد زجاجتين من الخمر، مزيج من الويسكي والبراندي ، امزجهما مع خمر شديد الفعالية، واختم الزجاجتين ، و احفظهما على حساب الطاولة .

دخل رهوان المطعم قبيل التاسعة ، وتفقد الطاولة التي حجزها ؛ فأعجب بانعزالها وخصوصيتها ، وجلس يترقب حضورهما ، في التاسعة تماماً دخل سعيد ودارين ، وبرفقتهما شخص ثالث ، عرف فيما بعد أنه أخوه هزاع، صانع السرج والبرادع 9 ، والذي جرى ، أن سعيداً صادف أخاه ، في صباح هذا اليوم عند مدخل سوق الحميدية ، فبادره هزاع بالقول :

سنسهر الليلة عندكم فاستعدوا .

الرغبة . هذه الليلة ! نحن مدعوان إلى سيرة في مطعم فرسان

- من دعاكما للسير هناك ؟

- مدير التعيينات والتوظيف .

صعق هزاع واستغرب ، و قال :

هل ما تقوله حقا ؟! ومن أين تعرفت إليه وبينك وبينه مسافات ضوئية ! فما المصلحة التي دعته إلى أن يدعوك للسهرة .

.....

9 - الحِلس الَّذِي يُلقى تَحَّتَ الرَّحْلِ، وَالْجَمْعُ الَبراذِع، وَخَصَّ بَعْضُهُمْ بِهِ الحِمار والبردعة بالدال والذال . لسان العرب "

- نحن دعوناه إلى بيتنا ، وسهر عندنا البارحة ، واريد الرجل أن يرد دعوتنا .

لا تدخل غريباً إلى بيتك ! ما المصلحة المشتركة بينكما ؟

إنه يريد اصطياد زوجتك ، وأنت لا تدرك من الأمر شيئا .. لقد وعد دارين بوظيفة ، في أول الشهر وستداوم في مؤسسته .

هذا يثبت صحة قولي ، الوظيفة في هذه الأيام ، يدفع عليها الشيء الفلاني ، وأنت قد نزلت عليك مائدة من السماء ، السواد عيونك ! ألا تحاكم الأمور يا رجل !

- لكنني مصر على تلبية الدعوة ، وقد وعدته بالذهاب .

في هذه الحالة لابد من مرافقتكما ؛ حتى أطلع على نواياه بنفسي .

لم يستطع سعيد الاعتراض ، لاسيما أن هزاعاً ، قد سيطر عليه منذ زمن طويل ، وشل إرادته .

فقال :

نلتقي إذن في الثامنة والنصف ونذهب سوية .

عندما رأهم رهوان ، يتقدمون باتجاهه، انزعج من هذا المتطفل ، لكنه كتم انزعاجه ووصلوا الطاولة التي دلهم عليها النادل ، فاستقبلهم رهوان ، ودعاهم للجلوس ، وعرف سعيد رهوان بأخيه هزاع ، وأنه يصنع السرج والبراذع .

قال هزاع :

- هذه المهنة ، كانت مزدهرة قديماً ، والآن أصبحت تراثا . وقد انصرف الناس عن الاهتمام بالخيول . مع أن الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة .

فأجابه رهوان ، وقد انزعج من حضوره فأراد تحجيمه بمرحة :

ولكنك أيضا تصنع البراذع للحمير ، وقد كثرت الحمير . بحمد الله - في هذه الأيام ، وعلى هذا المقياس ، فأنت رجل ثري ومعروف ، والحمير تقر لك بالفضل .

وضحك الجميع للنكتة المقصودة ، ولكن هزاعا انزعج منه ، وعرف أنه يحتقره ، ربما لأنه تطفل على سهرته ، أو لأنه متعجرف يتلذذ بتحجيم الآخرين وإذلالهم .

وجاء النادل بصنوف من المقبلات ، لذيذة وبديعة الرصف والتنسيق ، إضافة إلى زجاجتي الخمر ، وصف الصحون بترتيب على الطاولة ، ووضعت الزجاجتان في الوسط ، صب النادل الخمر بكؤوس اربع ، وقدم لكل جليس كاسه وانصرف ، رفع رهوان كاسه ، داعياً الجميع لشرب نخب القيادة الحكيمة ، التي تقود البلد من سنين ، ونخب صداقتهما .

قال هزاع :

أنا لا أشرب الخمر

- لماذا لا تشربه ؟

لم أعتد عليه !

- إذن تعود الآن ، واشربه لأنه ليس من اللباقة أن يجلس قوم ، يشربون الخمر ، وآخرون عازفون عنه ، يتفرجون على

اندماجهم في نشوته ويضحكون ، اشربه حتى لا تقول الحمير التي تصنع لها البرادع . إننا وجدنا من هو أحمر منا ..

كانت كلمة قاسية ، ونقدا لاذعاً ، بل تحقيرا لرجل ، حضر مادية لم يدع إليها ، وتطفل على مجلس قوم ، قد تفاهموا على هدف ومصالح هو خارجها. وكانت عادة رهوان ، أن يقوم بتفجير هكذا مواقف مفاجنا خصمه ، فيربكه ولا يستطيع خصمه مجابهته ، أو الرد عليه ، وقال هزاع في نفسه (لقد أصبحت سخرية، وهزءاً ، وكان على أن لا أتطفل إلى مجلسه ، وإذا رددت عليه الآن بكلمة أقوى ، أو سفهته فإن رهوان هذا وهو الشرس ، المدعوم سيمسح بي الأرض ، ويكسر عظامي ، ولن اجد من يسعفني ، أو ينقذني وسأزور السجن بتهمة ملفقة ، وقد لا أخرج منه إلا عليلا أو معطوبا ، وإذا خرجت غدا شاكيا، فلمن أشكو إليه أمري ؟ إنه يعرف الجميع بما فيهم القضاة والحكام ، وبلع الإهانة وسكت ، لكنه دارى ارتباكه بضحكة بلهاء ، وأدرك رهوان أن هزاع جبان رعديد ، مثل أخيه سعيد ، وأن شجاعته تقتصر على أخيه المهزوز ، الفاقد للثقة من عجز وضعف ، ثم رفع الكأس مرة أخرى ، وقال :

- بصحتكم جميعا .

فرفعوا الكؤوس جميعاً إلى شفاههم ، هزاع لم يبتلع نقطة ، لكنه امتثل للأمر ، وسعيد رشف بعض النقاط مجاملة لرهوان ، أما دارين ، فقد غبت من الكأس ما وسعها ، ولاحظ رهوان ذلك فأعجب بجرأتها ، وأقبل هزاع على صحون المقبلات ، متناولاً من محتوياتها الكثير .

فقال له رهوان ممازحاً وهازئا :

- ابق قليلا من معدتك فارغاً ، للوجبة الرئيسة الغنية باللحم والدسم : فهذه مقبلات وأنا هدفي مصلحتك حتى لا تقع في العين.

وضحك ضحكة هيستيرية ، فجاروه بالابتسام

إن رهوان لا تنطبق عليه مقاييس ، أو قواعد معظم الناس . يهاجم في اللحظة التي تظنه رايضاً هادئاً ، لا يجامل ، ولا يهادن، وأحيانا تبدو جرأته أقرب للوقاحة ، فلا يقيم وزنا لضيف. أو زائر ، أو حتى صديق ، إنه مزاجي بدرجة كبيرة ، ثقته الزائدة بنفسه دفعته لخانة الغرور، وماضيه المثقل بالشظف ، والعنف والاقتحام يجعل الآخرين ، برعب دائم بحضرته .

لم يتطرقوا للوظيفة ، ولم يشأ هو أن يدخل هذا الموضوع ، في سيرة حضرها متطفل ، لكن رهوان أتى على كل خمرها . وسخر من احد حاضريها ، وتناولوا الوجبة الرئيسة

، وكانت دسمة ، وغنية ولذيذة ، وبعدها نهض رهوان متذرعاً بغسل يديه . وغاب عنهم .

وفي غيابه قال هزاع :

أرأيت ! إنه ما انفك يلتهم زوجتك بنظراته.

قالت دارين :

- لم ألاحظ ذلك ، والرجل كان مؤدبا .

يجب أن تقطع علاقتك به نهائياً يا سعيد، وألا تكون كمن

يدخل الدب إلى كرمه .

مستحيل هذا ! لأن ذلك يعني فقدان الوظيفة .

ملعون أبو الوظيفة ! تريد أن تربح الوظيفة ، وتخسر زوجك ، إنه متعجرف شرير قذر ، لن تنفد منه زوجتك ، إنه يخطط لاجتياحها ..

قالت دارين :

- لا تغتب الرجل في غيابه ، فهو قد أكرمنا ، ولم نهضم

الطعام الذي قدمه لنا بعد .

ليس هذا بطعام ، إنه الحب الذي ينثر للطير ، قبل اصطياده ، انتما مغفلان ساذجان ، إنه ذنب .

كان رهوان يقف خلف المكان ، ويسمع الحديث ، فالطاولة التي اختارها ، كانت مستورة من جوانبها الثلاث من أجل الخصوصية ، وقد اختارها رهوان بهذا المكان ، منعزلة ليبتعد عن الزبائن ، من أجل منصبه ، سمع كل ما قيل عنه، فأضمر في نفسه أمرا ، ولما رأوه فجأة أمامهم ، لم يعرفوا كيف أتى ومن أين ظهر .

قال لهم بلهجة الأمر :

- لتنصرف الآن .

دفع الفاتورة وأكرم النادل ، وانطلق إلى سيارته ، وفتح الأبواب بجهاز التحكم فدخلوا جميعا إليها ، فركب هزاع إلى جانبه ، واستقر سعيد ودارين في المقعد الخلفي ، هدر المحرك وانطلقت السيارة .

قال رهوان :

- أشعر ببعض الصداع ، وأحتاج هواء نقيا سنذهب بمشوار قصير للبرية ، انتابهم شيء من الخوف ، لكنهم انصاعوا على مضض مكرهين ، وطارت السيارة بسرعة الضوء ، دقائق معدودات ، أصبحوا خارج المدينة في البرية ، توقفت السيارة فجأة ، وانطفأ المحرك .

- وقال رهوان

إن عطلا طرأ على السيارة ، لا أعلم سببه ، ولكني سأحاول اكتشافه ، ورفع غطاء المحرك قليلا ، ثم أنزله وعاد

إليهم، وقال :

- البطارية ضعيفة ، والسيارة تحتاج لدفع حتى تقلع ، انزلا وادفعاها من الخلف .

نزل هزاع ، وقال لسعيد ودارين :

انزلا معي .

قال رهوان :

- لتبقى دارين في المقعد الخلفي ، فالطقس بارد ، والليل مفزع . دعوها مطمئنة في مكانها . انصاعا للأمر ، ونزلا خلف السيارة ، يدفعانها للأمام ، في هذه اللحظات أدار رهوان المحرك ،

وانطلق بالسيارة يسابق الريح .

- غاب عنهما في البراري بعيداً ، ثم توقف وأطفأ المحرك والأنوار وخرج من خلف المقود ، إلى المقعد الخلفي ، ليجلس ملاصقا لدارين ، وقال :

لقد سمعت ما قاله هزاع لأخيه ، محذراً وداعياً إياه ألا يدخل الدب إلى كرمه ، كي لا يأكل عنبه ، فقررت في هذه الساعة،

أن أخطفك من بين أيديهما وقررت أيضا ، أن أتناول عنبا حلاوته أحلى من العسل ، وتناولها من خصرها ، وشدها إليه بعنف ، فتاوهت واطبق على شفتيها فذابت على صدره ، ثم ألقاها على طول المقعد الخلفي ، وتغشاها ، عصرها عصرا ، فاعتقدت أن عظامها قد سحقت ، لكنها سرت من الألم اللذيذ، وصرخت من قوة فحولة لم تذق طعمها بحياتها كلها ، وبقي الأمر هكذا وقتا ، لم يشعرا بمروره ، وأكلا ثمارا محرمة ، و شعرا بلذتها المفرطة .

تنحى جانباً وقال :

- تناولت العنب كاملا ، وجردت الكرم من ثمراته . من الآن ، كل كرومي لك وحدك ، في كل المواسم ، وعلى مدى الزمان والمكان ، منذ أن رأيتك ، عرفت من أول نظرة

سندتها لي ، أن هذا سيحدث ، ولكني لم أكن أتوقع حدوثه بشكل خاطف سريع ، كهجوم قطعان من الذئاب على سرب أغنام ساهمة . واسترسل :

- أعطني رقم هاتفك وستلتقي سرا ، وهذان الحقيران سيتخذان غدا موقفا مني ، وربما يمنعانك من الوظيفة ، وتبقين حبيسة البيت ، أو خادمة في الصالون ، أنا متأكد أنك ستكونين في الشهر القادم سكرتيرتي الخاصة .

قفل راجعا ، وقبل وصوله لمكانهما أطلق عدة عيارات نارية من مسدسه الحربي في الهواء ، ووصل إليهما فرآهما خائفين مذعورين .

فقال لهما :

- اضطررت للسير مسافة طويلة من أجل شحن البطارية ؛

ووجدت ذنباً في الطريق فصرعته برصاص مسدسي ، هلموا بنا

لتسلخ جلده .

- قال هزاع :

لا نريد أن نسلخ جلودا لذئاب في هذا الليل البهيم ، رجاء أوصلنا إلى البيت .

صعدا السيارة يرتجفان ، وأوصلهم إلى بيتهم وغادر ..

سال هزاع دارين :

من عفتك ؟ هل حاول أن يعتدي عليك أو يلمسك ؟ أو قال كلاما ينال

- لم يفعل فهو يعرف ، أنني لن أسمح له بذلك مطلقا ، لقد كان بمنتهى اللطف والتهذيب، ورأيت الخجل يقطر من جبينه ، على ضوء القمر.

كانت هذه الحادثة ، مفتاح حياة جديدة لدارين ما حلمت بها ، أو توقعتها ، لكنها كانت مسرورة ، وكانت في غاية النشوة ، لأنها عثرت على فحولة نادرة ، لا توجد في كل الأزمان، فحولة ربما تكون قاتلة .

6

مضى أسبوع على تلك السهرة ، في مطعم (فرسان الرغبة) خلال هذا الأسبوع طرأ تغير في علاقة سعيد بأخيه ، تجلى بجدل ونقاش وصل لحد العتاب ، والتهديد ما بين سعيد وهزاع ، فقد كان هزاع مجروح الكرامة ، لأن رهوان هاجمه في كبريائه وشخصه، قاصر على أن يقطع سعيد وامرأته علاقتهما برهوان ، وأن يصرف النظر عن الوظيفة ، وتكتفي دارين بدوامها في الصالون تحت رقابة هيفاء .

قال السعيد :

إن بقاءها في الصالون ، دون الوظيفة هو على المدى البعيد ، أفضل هدف لك ، لأنه ضمانة الاستمرار والإخلاص . لا

تفتح باب القفص لطيرك .

- هل وجودها في الوظيفة يجعل منها خائنة؟

- لم يوظفها ، أو يعدها بالوظيفة ذاك السافل ؛ إلا لكي ينقض عليها ويفترسها، وعلى فرض أنه كان شريفا - وهو أبعد ما يكون عن هذا فإن الموظفين عندنا ، يتلهون بعضهم ببعض لقلة شغلهم، أو بالأصح لأنهم لا يريدون العمل، فيتناجون ويتحابون ، المتزوجة تخون ، والعزب يكذب على العزبة ، ويعشمها بالزواج ، وبعد أن ينالها يتركها ، باحثا عن غيرها ، ثم إنك لست أجمل خلق الله ، ويوسف نفسه كادت أن تغويه زليخا - وهو النبي - لولا أن راى برهان ربه فيمن تثق يا سعيد ؟

لكن سعيدا - وبتحريض من دارين - أصر على أن تنال زوجته وظيفة دائمة ، براتب ثابت وأكبر مما تجنيه من صالون هيفاء بأضعاف، إضافة إلى تأمين حياتها بعد التقاعد.

وانكسرت هيبة هزاع ، وسقطت سلطته المفزعة على سعيد، فتمرد عليه وحدث بينهما جفاء ، ازداد ككرة الثلج وانتهى بقطيعة ، أما دارين ، فقد كانت أكثر لباقة ، عندما انسحبت من عملها في الصالون ، تاركة شعرة على الأقل من الصداقة هيفاء ، حيث احتجبت في بيتها، بعد أن شرحت لهيفاء ، وجهة نظرها في الوظيفة قائلة : مع

هذه فرصة أتتنا اليوم ، وإذا لم نستغلها أو نقتنصها ، فقد لا تأتي مطلقا في المستقبل.

والفرص تأتي مرة واحدة في العمر ، فاذا لم يغتنمها المرء، ذهبت أدراج الرياح .

صالوني تحت أمرك ، في أي وقت تشائين .

اقتنعت هيفاء بوجهة نظرها ، واعتبرت أخاها هزاعا ، متصفاً في استخدام حقه في توجيه أخيه الأصغر سعيد ، بمنع زوجه من التوظف فالوظيفة - في حال طرد سعيد من دكان أبو حسبو كفيلة بأن تجعل حياتهما ، مستمرة بدون تأثر يذكر ، كما أن وجودها في العمل ، يثري حياتها ويبعد عنها الملل . ومادام الاثنان متفقان على أهمية ذلك ، فلتتوظف في تلك المديرية ولنرى النتائج فيما بعد .

أما الخوف من عدوانية رهوان ، فلم نسمع بأن رجلا ، قد أكل امرأة قط ، أو عاشرها إلا برضاها ، ونحن لسنا في غابة ،

وإذا أرادت امرأة الخيانة ، فلن يقف في وجهها حاجز ، حتى ولو وضعت في زجاجة محكمة الإغلاق . وبعد أن تزوجت دارين من سعيد ، ورضيت به ، فلا بد لها من الالتزام بزوجها وبيتها .

كان رهوان يتصل يوميا بدارين، بعد أن يخرج سعيد من بيته ، لدكان الحلاقة ويتكلمان دقائق ، يخبرها عما فعل وأعد لعلاقتهما المستقبلية ، فقد قال لها يوماً :

- لقد اشتريت بيتا قريباً من مكان عملنا، لنختلس الوقت ، ونذهب في لقاء غرامي يومي ، إنه دور مؤلف من أربع غرف ، في منطقة العدوي ، وقد فرشته بالأثاث ، الأنيق المريح. وجهزت سريرا في غرفة النوم ، سيكون دافئاً ومستعدا لاحتضاننا ، كما جهزت بارا ، ملاته بكافة أنواع المشروبات

وجاء أول الشهر ، وجهزت دارين كامل أوراقها المطلوبة .

فاتصل بها وقال :

- غدا تحضرين مع أوراقك إلى الديوان لاستلام الوظيفة ، وسيكون عملك في الديوان أياما، ثم أنقلك بعد ذلك إلى إدارة

مكتبي .

أصابها فرح عظيم ، وأخبرت سعيدا عند عودته ، بأنها ستذهب في الغد ، لتداوم أول يوم في وظيفتها ، فلم تكن بهجته بأقل من فرحها .

وفي الصباح ، لبست فستانا أبيض أنيقا ، فيه الجمال والبساطة ، والكثير من الاحتشام ، فهي ستذهب للعمل لا للسهرة !

وضعت زينة خفيفة ، فاكتسى جمالها الفطري ، بالألوان الربيعية الزاهية ، وتألقت العيون والخدود وصبغت الشفاه بلون الكرز .

دخلت المديرية وسألت عن مكتبه .

فقالت مديرة المكتب :

هل هناك موعد مسبق ؟

- نعم فأنا أريد تقديم أوراقي للمدير ، قابلته صباحا .

كان ذلك أجمل صباح لكليهما ، فشرب معها القهوة ، وامتلأت المديرية بربيع مزدهر، وضاعت رائحة القرنفل الحار وعبيره أرجاء المكان ...

قال لها :

ستداومين بعض الوقت في الديوان، تتعرفين إلى العمل ، وروتين الدوام اليومي ، ثم أنقلك إلى رئاسة مكتبي ، أما إذا نقلتك فورا ومن الآن، ففي الأمر ما يثير الشك والريبة

وعادت من أول يوم دوام ، إلى بيت أمها وجدتها ، في الشعلان ، وأخبرتهما عن الوظيفة التي حصلت عليها .

سألت الأم :

من عرفكم على المدير ، ومن دعمكم في الوظيفة ؟

- كانت صدفة ، تعرف فيها سعيد على رهوان .... ولم تذكر

التفاصيل !

قالت الأم :

اكتموا الخبر عن عزيز ، حتى لا يجهض المشروع ، إنه الآن منزعج من زواجك الذي عارضه . وقد قلل من زياراته لنا ، وإن لم يقطعنا من الزيارات نهائياً ، لكنه عاتب على عدم سماع النصيحة .

وبعد أسبوع أو أكثر من دوامها في المديرية، دعاها رهوان الزيارة عش الغرام ، الذي أعده لها ، وأعطاها العنوان والمفتاح .

قال لها :

- بعد نصف ساعة تتوجهين إلى المكان، أما أنا فإني سأخرج فورا الآن .

خرجت من المديرية ، بعذر أبدته لرئيس الديوان ، ووصلت حي العدوي ، كانت سيارته الفارهة السوداء ، تربض قرب الرصيف ، تحت الشقة رمز العز والأبهة ، وصعدت إلى الشقة بحذر ، فوجدت الباب مفتوحاً ولكن بشكل موارب، دخلت الشقة ، وأغلقت الباب بهدوء وحذر.

كان رهوان في غرفة الجلوس ، يترقب وصولها ، وأحس بدخولها ، فاستقبلها عند الممر العريض ، بشوق ! بضمة فقبلة فكلام حار جميل لكنه عنيف وشهواني كان يرتدي سراويل أبيض وكنزة صيفية بنفسجية ، وكان في الممر ديوان عريض ، لم تجد دارين نفسها إلا مرمية فوق الديوان ، رماها عليه بعنف وسرعة ، أرادت أن تقول له : (تمهل ، لأخلع ثيابي كي لا تتجعد أو تنسخ) ، لكنه كان في عجلة من أمره وغلبته الرغبة ، أحست

به ذئبا جائعاً ، وجد شاة، وهصرها فأحست بأن أضلاعها تسحق ، ورغم الألم ، فقد طغت على كيانها لذة جامحة تغلغلت في أعماقها، وصارت ترتجف ، ولا تعلم السبب، هل هو الخوف ؟ أم اللذة أم هما معا ؟ كان يهاجم كضبع ويتوغل بعيداً بعيدا ، نصف ساعة من الاجتياح والافتراس ، يعقبها هدوء ما قبل العواصف ثم تلاشت . كان ثوبها بحالة يرثى لها، لكنها عاشت نشوة لم تحلم بها من قبل ، ونظرت إليه بعينين حالمتين ، تومضان كنجمة تكار تلامس الأرض ، خرجتا من عذاب لذيذ ، وشهوة عارمة، بينما

كان هو بحالة توهج كتوهج البرق نتيجة تلاقح الغيوم السالبة والموجبة ، وحدوث الصدمات الكهربائية ، التي يعقبها الرعد ولا بد بعد ذلك من انهمار المطر . وغمرت روحه بلذة الاجتياح .

قالت :

أراك استعجلت كثيرا ، أفي كل أمورك تتسم بالعجلة ؟

قال :

- كل الأمور دونك ، لا تساوي شيئا ، إن حبي لك ولهفتي لجسدك ، لا يكفيه عمر واحد لذلك، علي اقتناص الثواني واللحظات، وهنا تبرز أهمية العجلة ، وإعادة الأنغام ، وتكرار اللحن .

خلعت ثوبها ، وفتحت خزانة الملابس فوجدت أنه أعد فيها ألبسة النوم الخفيفة وأرواب (الديشمبر) وأحذية بيتية خفيفة ، ذات فرو وردي، فارتدت منامة سراويلها قصير، وذهبت إلى الحمام

الإصلاح شأنها وزينتها ، ثم عادت إليه فوجدته في غرفة الطعام ، قد اعد طعاما خفيفا ، وزجاجة خمر وردية .

وقال :

- بصحة حبنا اللاهب .

فأجابته :

- بل بصحة حبنا العنيف ، الذي لا يبقي ولا يذر، لقد كدت أن تحطم ضلوعي ، وتسحق عظامي ، ولكني اعترف أنه كان لذيذ

جدا أول الغيث قطر ثم ينهمر ، ستتعلمين على يدي فنونا ، لا تدرس حتى في مستوى الدراسات العليا .

بسرعة | فرغت الزجاجة . فانتشى من جديد، واعترته طاقة جهنمية عدوانية ، عليه استنفاذها.

قال :

تعالي لأريك غرفة الجلوس

تقدمته ، فتأمل جسدها الممشوق ، وساقيها العاريتين ، فجاءته الرغبة من جديد . وألقاها على الأريكة وتناول شفتيها ، لثما ، ومصا ، وتقبيلا .

وقال :

- علي إطفاء نيران مستعرة، تأكل . جسدي

ولم يدعها تجيبه ، وكان في هذه المرة أشد قسوة وتفننا ، واستمرا وقتا طويلا وكانت هي تحته كالسمكة ، التي خرجت من الماء ، تتلوى باحثة عن المزيد من الأوكسجين ، هذا الرجل غريب في فحولته، قاس في غرامه ، لا يحتاج الكلمات بل تتدفق القوة.

والرغبة من كل أعضائه ، أصابها نعاس وتعب ، وغرقت في غيبوبة ، أنستها الزمان والمكان ، وما زالت بعض أعضائها تختلج وتتشنج. أما هو فراح يتأملها مجددا ، مأخوذا بجمالها الساحر الرائع ، وبجسدها المندى العابق برائحة الجنس والشهوة .

صنع القهوة وأحضر بعض الحلويات ولما دخل غرفتها قال:

- أما زلت في غيبوبتك ؟ اجلسي نستمتع بالقهوة الصافية .

استوت ، ولملمت ما تبقي من لباس انتزع ، ثم ذهبت مجددا

إلى الحمام ، وعادت بعد دقائق وقالت :

- أنت رجل لا تعرف التعب ، ولا الشبع !

وارتشفا القهوة وتناول من شفتيها شهدا .

وتابعت :

انت نهاية المطاف في حياتي ، ولن يكون بعدك أحد .

نهاية المطاف في غرفة النوم ، وقادها من يدها إلى غرفة

النوم.

تمنعت بغنج ودلال وقالت :

لا أريد لقد تعبت !

صار يصفعها بلين ، فصارت تستجير وتتأوه ، فثارت ثائرة

الوحش الكامن فيه ، فأمسكها من قدميها ، ورفعهما للأعلى فتدلى جسدها، ورأسها للأسفل ، ثم ألقاها بعنف على السرير فصرخت وأطبق عليها ، وتخيل نفسه تمساحا، اصطاد وعلا نزل الماء ليشرب ، فأمسكه التمساح من فخذه ورفعه للأعلى وللأسفل ثم از درد أعضاءه قطعة قطعة ، واستمر في عنفه هذا، وهي تتأوه ،

تطلب الرحمة وتترجى ، وهو منهمك في عذابها اللذيذ حتى تخدر

جسدها ، ولم تعد تشعر بالألم ، بل تحول الألم إلى لذة متفاقمة ، تزداد في حلاوتها ، كلما زاد بضربها ، وهو في الوقت ذاته تخدر

عقله ، والإحساس الرشيد لديه ، وشعر بلذة جنسية لا مثيل الحلاوتها ، وصارت تطلب المزيد من العنف و الألم ، فلم تعد تبالي بل تستمتع أكثر من قبل بألمها .

لكن صراخها لم يخفت ، واجتاح في طريقه سهولا وهضابا، و مرتفعات وهبط وديانا وفاجأه سيل العرم ، الذي اكتسح المدن ، والقرى ، والدساكر، 10 والمزارع ، ثم خلف الهدوء والسكينة والسرور والندى الطللي الناعم .

بعد أن صحا ، وكانت هي في غيبوبتها، أشعل لفافة تبغ ، ونفث دخانها بتلذذ ، وألقى عليها نظرة فاحصة، كانت خيوط من دم تلوث وجه الفراش ، كان صدرها مدمى أيضا وكان مخالب قد مرت عليه ، تاركة آثارها ، شفتاها مدميتان وقد بدتا فارغتتين مستنزفتين ، إلا من جلودهما، وعلى جانب منهما جرح حزين ! وكانت عيناها مذعورتين ، مفتوحتين ، على أكبر اتساع لهما ، فتح

فاه بتثاقل ، ثم قال :

سأذهب لتجهيز الحمام .

أعد لها علبة الزينة الفاخرة ، وبعض البياضات ، كان قد اشتراها لها ، فرد الطعام الجاهز على الطاولة ... إنه طعام الغداء الدسم .

كانت قد استردت وعيها ، ودخلت الحمام وشاهدت جسدها ووجهها ، فكانت كالليمونة المعصورة ، وأعاد الماء الساخن للجسد حيويته ورونقه ، لكنه لم يشف السحجات الزرقاء في بعض الأنحاء ، وعادت لتجدد زينتها وتموه الجلد الملون المضروب ، وجلسا يتناولان الطعام ...

قال لها :

.....

10- الدسكرة بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي والجمع الدساكر، قال الليث: يكون للملوك، وهو معرب

- اعتذر عما بدر مني ، لكنني أردت أن أعرفك على لون قاس ، من ألوان الحب ، وأنا لن أصر على ممارسته فيما سياتي من أيام ؛ بل سأقتصر على ما تحبين ناعماً أو قاسيا ، رومانسيا أو واقعيا ، والأمر يعود لك ، فأنا أحببتك بصدق، وهذه أول مرة أشعر فيها بحب حقيقي .

للجسد . هذا ليس لونا من ألوان الحب ، إنه تعذيب مبرمج ، وإهانة

قلت : تجربة لن تعاد ، إلا إذا جاءت بطلب منك .

- ألم تكن لك علاقات فيما مضى؟

- أكذب إذا قلت لا ، لكن ليس فيها الحب ، قد يكون بعض الإعجاب ، كانت الغريزة هي الدافع .

ومعي ماذا كان الدافع ؟

- بصدق أقول لك ، معك اختلط الحب بالرغبة ، لذلك كانت الأمور تحدث بهذا الشكل ، ولأول مرة كان فرحا عظيما ، لا يمكن وصفه ، إنها اللذة في أقصى درجاتها . إنك تشعر بحالي تماماً ، فهذا ما شعرت به أنا أيضا ، ولا أكتمك سرا، فلقد المتني القسوة ، بالقدر الذي أسعدتني فيه، لم اشعر بمثلها ن مع سعيد أو مع آخرين في لبنان.

هل كانت لك علاقات في لبنان؟

قلت لك ، أكذب عليك إذا قلت لا، لكنها لا يمكن أن تبلغ أجزاء مما وصلت إليه اليوم ، وأنا أصدقك القول - وبإمكاني أن أنكر - لكن الحب الحقيقي لا يقوم على الكذب .

أكبر فيها صراحتها ، وجرأتها فأحبها أكثر.

من اليوم لن يدخل هذا البيت ، أنثى غيرك وأعاهدك صادقا أن حبي لك ، مدعوم بالوفاء والإخلاص ولا ندري إلام سيتطور ؟

سرت لقوله وصدقته ، ثم قالت :

- سأغيب عن الشركة خمسة أيام ، وأرجوك أن توصلني لبيت أمي في الشعلان ، وسأغيب عن سعيد أسبوعا ، لكن لا تقطعني من الهواتف .

تجولا في أنحاء الشقة ، متفقدين الغرف والأثاث والديكور ، اعجبها ذوقه ، واكتمال الفرش والأثاث والأدوات وكل في مكانه.

قال لها :

لنستعد للمغادرة ، فقد كان هذا أروع لقاء سيتكرر في الأيام القادمة .

استقبلتها أمها بترحاب ، في الشعلان .

وسألتها :

لماذا لم يأت سعيد معك ؟

سأبقى عندك بضعة أيام ، لقد اشتقت لحضنك الدافئ .

هل حدث خصام؟

- لا لم يحدث فأنا قد أتيت من الوظيفة مباشرة ، ولم أخبره

بعد .

واتصلت به وأخبرته ، أنها ستبقى لوحدها عند أمها أياما .

رحبت بها الأم ثانية ، وثالثة ، وقالت :

- أنت الآن مختلفة عما مضى ، هل رهوان السبب ؟

عميق . - أريد أن أنام ، فأنا في حالة من التعب، وأحتاج لنوم

ولاحظت التغيرات في وجهها ، فقالت :

ارى في وجهك كدمات ، وفي شفتك جرح حديث العهد .

سأشرح لك فيما بعد ، وسأذهب الآن إلى غرفتي القديمة لأنام ، أما بالنسبة للغداء ، فقد تناولت طعاما قبل المجيء ، ولا داعي لانتظاري، تغدي وجدتي .

دخلت غرفتها ، وارتجت الباب ، كانت الستائر مسدلة ، والغرفة تغرق في شبه ظلام يتسلل بعض الضوء ، من نوافذ لم يحكم إغلاقها، كان بخار الماء على زجاج النوافذ ، يقطع أوصال الأشياء فتبدو مبهمة ، وعلى غير حقيقتها ، واستلقت على السرير ، بعد أن خلعت بعضاً من ملابسها ، لم تنم مباشرة ، رغم الألم والتعب، واستهلاك الطاقة، بل راودتها الأحلام والذكريات.

جمالها هو نقطة قوتها ، أغدق عليها ثقة بالنفس منذ صغرها وكانت أمها تحلم بتزويجها من شاب سليل أسرة راقية وعالية المقام ؛ وأعدتها لذلك في معهد الإدارة ، وفي دراستها بلبنان، وسمحت لها بالانغماس في مجتمع الانحلال ، الذي أطلقت عليه أمها ، اسم المجتمع المخملي) ولكن هذا المجتمع لم يكن ليتمتع بالنبالة ، والشهامة، والخلق النبيل ، بل بالمجون والبوهيمية والانجرار إلى شهوات مفضوحة ، وإلى غرق في الخمر والمخدر والجنس ، فقدت مرجعيتها الصالحة بموت أبيها ، بل لم تكن أمها تعتبر أباها ذا مرجعية ، لأن أفكاره ، لن تفتح لها أبواب الرقي والعلا ، لذلك

اخذت على عاتقها توجيهها ، ولكنه التوجيه الخطأ ، وليس اخطر على الطفل من التربية الخطأ ، وهو يعتقد أنه الأصح، فهو يتلقاه من أبيه أو من أمه وهما مثله الأعلى .

ولم تستفد نبال من أخطائها السالفة ، ولم تغير ما بنفسها لتتغير ، بل مازالت تهتم بالقشور دون الجوهر، وتصنف الناس في التطور ، بما يلبسون ، و بما يرطنون ، مقلدين غيرهم ، ناسين أصلهم أو جوهر الحياة والتمسك بقشورها . تزوجت نبال حمدو الحمصاني مرغمة لستر زلة وقعت بها، وأرادت يومها الهروب من بيئتها ، عندما فاتحها أبو رياض ، بموضوع طلب حمدو يدها ، واستمرت الحياة ، لكن بتغليب أسلوب الأم، وفرضه في تربية ولديها ، فالأول نشأ مخنثا، والبنت أصبحت مستهترة ، وقد رضيت بسعيد - كما فعلت أمها - سترا لخطيئتها ، وها هي الآن أمام رجل حقيقي ، وضعته الظروف في طريقها، فماذا تصنع بسعيد ، إن سعيدا قد أدى دوره، وانتهى فعليه ، أن يفسح المجال لغيره ، فالضعف والقوة لا يلتقيان ولا يجتمعان ، وارتات الانفصال الفوري عن سعيد ، رغم أنها لم تضمن - وبشكل أكيد - السيد رهوان ، ولكنها على كل حال ، حققت انجازا في حصولها على الوظيفة ،

التي اعتبرتها الطريق لتحقيق ذاتها ، ووصولها إلى أحلامها.

لابد أن تجد حلا ، وعند المحامي كل الحلول، ومن الغد ستطرق مكتبه ، وتطرح أمامه مشكلتها ، طالبة الانفصال عن سعيد بأقصر السبل.

وأما لقاءاتها برهوان ، فعليها أن تقنعه ، بأن تكون هذه اللقاءات بعد انتهاء دوامها ، أو خلال الليل ، ولأن غيابها - إذا

أصبحت مديرة مكتبه - وغيابه في الوقت ذاته ، قرينة واضحة إذا تكرر، على أن علاقة ما تربطهما ، وسيفتضح أمرها في المديرية وبقاؤها في الأرشيف لا يحقق لها طموحاً ، أما إذا أصبحت مديرة مكتب المدير ، فقد تنقلب إلى المدير الحقيقي الذي يقبع في الظل ، وسألت نفسها هل أنا أحب رهوان حبا حقيقيا ، وبالمعنى الجوهري لهذه الكلمة) ووجدت - بعد تمحيص وتفكير ، وإعادة نظر - أن الحب الرومانسي ، الذي حلمت به في بداية حياتها كان بمثابة إناء من (الكريستال (رقيق وجميل ، لكنه قد كسر ، بخديعة من حبيب كاذب ، هو جمران العيسى، أحبته بصدق ، لكنه خدعها وتركها منكسرة ، وما وقوعها بحضن المزين جورج البارد؛ إلا رد فعل على انكسار حبها الأول ، وتعويضاً عن شيء هام خسرته في حياتها ولن يعود.

إن رهوان الآن هو المخلص والمنقذ ، هو الذي يطفئ النيران المشتعلة ، ويضيء القناديل المنطفئة ، ويوما ما ربما تصبح زوجة الوزير المنتظر ، أو القائد الحزبي الذي يملك الحل والربط ، فأين موقع سعيد من كل ذلك ، هجره بل خلعه ، اليوم أفضل من الغد لأن سعيد من أشباه الرجال الذين يسهل قيادتهم ، إن فرائصه ترتعد أمام أخيه هزاع ، وأمام كل قوي ، فكيف يجدر به أن يحمي حماه ، ويدافع عن زوجه ، لقد انتهى دورك يا سعيد ، والزمن الآن ، هو زمن رهوان الأزدي بلا منازع ، فلتصهل الخيول في البراري بلا قيود ولا حدود ، وغلبها النعاس فاستسلمت للنوم .

كان الظلام قد حل ، وغمر الغرفة ظلام دامس ، عندما استيقظت ، حاولت الانزلاق من سريرها ، فلم تر شيئا وخافت أن تتعثر بشيء، وألقت نظرة على الساعة الفسفورية في معصمها

كانت الساعة الثامنة، لقد نامت أكثر من أربع ساعات ، وأحست الآن بالام في عظامها، وعضلاتها ، وأعصابها ، التي فعل بها رهوان ما فعل . لكنها كانت مسرورة ، وتتمتع بطاقة روحية هائلة، لم يكن التعب نفسياً ، بل كان تعبا جسديا سيزول ، وفتحت باب غرفتها ، فسطع نور من غرفة جلوس أمها وجدتها .

قالت الأم :

لقد نمت وقتا طويلا ، وكان نومك عميقا، الهذه الدرجة

تتعبون في العمل ..

كان ينقصني النوم ، من أيام ، ونحن في الإدارة لا نلعب ،

لكن تعبي يا أمي مصدره سعيد، الذي ارتبطت به بلحظة خطأ ، وكان رأي أخي عزيز مصيبا ، عندما نصحني ولم ارتدع ، وعلى كل حال ، فإن زواجي منه قد أتى أكله ، وعلي الآن أن أبدأ بخطوات جدية ، لأضع قدمي على أول الطريق الصحيحة .

هل ثمة من شجعك على ذلك ؟

نعم فكري ، وعقلي ونظرتي للمستقبل ليس إلا .

- الموضوع يحتاج إلى مزيد من الدرس، ويمكن تطبيق فكرتك ، عندما تثبتين في وظيفتك .

-لقد تم تثبيتي في وظيفتي ، بفضل رهوان فلقد سارع إلى هذا ، منذ الأيام الأولى لدوامي ، وأرى أن نذهب غدا للمحامي

بسام ، لمعرفة الإجراءات السريعة بهذا الخصوص .

في اليوم التالي ، ذهبتا لمكتب المحامي، وعرضت دارين فكرة طلاقها ، من سعيد وكم يلزم من الوقت للحصول على قرار

حكم يفرق بينهما .

قال المحامي :

- أسرع طريق هي المخالعة الرضائية ، أي أن يتفق الزوج والزوجة على ترك بعضهما بالتراضي ، فتعفيه هي من بعض حقوقها أو حتى كلها ، ويرضى هو بطلاقها عن طيب خاطر .

عليك يا دارين ، اقناع سعيد بذلك .

حضر سعيد مساء ، لجلب امرأته إلى البيت ولزيارة أهلها ، في الوقت نفسه ، كانت المقابلة جافة ، واقتصرت على فنجان قهوة بارد ، وطرح الموضوع ، وأبدت دارين رغبتها بالانفصال عنه، لقاء تنازلها عن كل المستحقات ، وأن تترك له كل شيء ، حتى لباسها نفسه .

قال سعيد :

- لماذا نترك بعضنا وقد أحببتك ، وزعمت أنك تبادلينني الحب .

- كل شيء يتغير ، وقد تغيرت منذ شكك أخوك هزاع بإخلاصي ، وأساء لكرامتي وكبريائي، وطلب منك أن لا تفتح باب القفص ، وكأنه يتخيلني طيرا ، أو حيوانا لا يستحق الحرية.

لكنني تركت أخي ، وهجرت عائلتي من أجلك .

- لقد انكسرت نفسي ، فمن يصلح النفوس والقلوب التي

انكسرت ؟

وبعد جدال طويل ، أفهموه أنه إذا لم يتنازل عن هذا الزواج بالمخالعة ، فسيكون ذلك عن طريق التفريق ، وعندها سيدفع مئات الآلاف وتحصل على ذهبها وفرش بيتها .

فاضطر سعيد للموافقة ، وهو الذي لا يملك مالا أو دعما ، وإذا جرى التفريق ، كما يقولون ولم يدفع لها استحقاقها ، فإنه عندئذ سيحبس ويلاقي الأهوال في السجن ، مع المساجين الذين سبهزؤون به ، ويجعلون منه خادماً لهم .

وفي مكتب المحامي ، جرى توقيع عقد المخالعة ، من الطرفين وثبت في اليوم التالي بالمحكمة ، وحصلت دارين في اليوم الثالث على قرار الحكم .

اتصلت دارين برهوان وأبلغته النبا ، في البدء لم يصدق ، ولكنها عندما حضرت إلى المديرية بنفسها ، وارته قرار الحكم أخرجه الفرح من رزانته ، التي يتصنعها في المكتب فقط ، وأغلق الباب وضمها إلى صدره بعنف وقبلها .

و قال :

- سأسبقك إلى العدوي ، وغادري بعدي بنصف ساعة .

وجرى في شقتهما بالعدوي ، ما جرى في اللقاء الأول ،

وأكثر واستمرات العنف ، وصارت هي من تطلبه ، ثم انتقلت إلى إدارة المكتب في المديرية ، وأصبحت فيما بعد المديرة الخاصة للمدير ، والمطلعة على أسرار المديرية بكاملها، وأكثر من ذلك صارت (مدير الظل) ، كما حلمت من قبل ، واستمر ذلك سنوات.

7

أخذ شكل لقاء رهوان بدارين منحى جديدا. فبعد أن كانت بنظره طريدة من طرائد صيده ؛ هي الآن مشروع حب ، ظهرت إرهاصاته يوم تركت سعيدا لأجله . وسادت لقاءات رومانسية لم يعهدها من قبل ، في كل مرة تتألق عيونها بإشعاعات ، لم يلحظها، تتغير وتتنوع ، تتعمق لتكتسح حياته . ولأول مرة يعرف أن العيون ، هي سر الحب ومفتاح القلب ، لذلك تمثلت لقاءاتهما بالتالي :

بعد انتهاء الدوام في المديرية تسبقه إلى عش الغرام في العدوي . أحياناً تجلب طعاماً جاهزا فاخرا ، من المطعم الراقي في أول حي التجارة ، وأحياناً تعد هي الطعام بنفسها ، من مواد متنوعة جلبها خصيصاً ، وخزنها بمكان حافظ ، تأخذ حماما ساخنا وتلبس للبيت لباسه الأنيق ، وغالباً ما يكون سراويل قصيراً ساخناً مع قميص المتفضل الملون ، زجاجة الخمر تتصدر المائدة والمقبلات تتوزع في الصحون الصغيرة المتعددة ، أما الوجبة الرئيسة فتنتظر حضوره ، لتخرج من الفرن ساخنة طازجة ، يأتي متأخرا عنها بنصف ساعة ، ويصعد إليها متشوقاً ، فيجدها في كامل زينتها ، متجددة ومختلفة عما كانت في الوظيفة ، وكأنها إنسانة أخرى ، نظرات الإغراء والإغواء بادية ظاهرة، والحب يتألق في العينين، تستقبله بغنجها ودلالها، التي يشعل فيه نيران الرغبة والاقتحام والافتراس فيترك كل شيء ويرميها على الأريكة ، فتنقلب أرنبا مذعورا أمسكه ذنب هصور ، ويشبعها قبلات ، وضم ، تعاد الفصول والطقوس، كأنها تحدث

للمرة الأولى فلا تفقد ألقها ولا يعتريها الملل رغم تكرارها ، وهي تتحمل متاوهة صارخة ، ولكنها في نفس الوقت متلذذة راغبة ، ثم تستنفذ قوتها ، وهو لا يهدأ ولا يتعب فتكون تحته كالمركب الغريق . ويصلان للذروة بعد رحلة العذاب ، وينقلب كل إلى جهته فيستريحان قليلا مستلقيين ، يشعل لقافة تبغه ، و تذهب هي إلى الحمام الإصلاح حالها ، وتضع زينتها الخفيفة ، وتعود لتجهيز الغداء ، بينما يدخل هو إلى حمامه الساخن ، ويخرج منه مرتدياً ثياب البيت الأنيقة. ويجلس إلى طاولة الغداء ، في غرفة الطعام ، يصب كاسين من الخمر ، يضع أمامها الكأس ، ويفرغ في جوفه كليه ، فلا يتركه حتى الثمالة ، ثم يصب الكأس الثانية ، ويبدأن بتناول طعامهما ممزوجاً بعبارات الحب والإطراء والثناء ، وبعض حكايات من رحلات الصيد ، التي يمارسها في العطل ، إنها رحلات صيد الذئاب ، وبعد الطعام يتناول سيجارته ، ويشرب

الكأس الخامسة ، أو السادسة أو العاشرة ، حسب الموقف والظرف

والارتياح النفسي ، ثم يجرها بعد ذلك ، وقد تعرى من ردائه إلى

غرفة النوم ، فيمزق أحيانا ثيابها ، وهو يجردها منها ، ثم يقوم

للمرة الثانية ، بعذاب لذيذ، تود لو يطول ، لكنها تتأوه ، وتصرخ

وأحيانا تنزف ، يقضم شفتيها ، ويعض جسدها ، وتسمع انسحاق

عظمها ، لكنها مستسلمة لقدرها ، الذي اختارته ، تغيب في نشوة

لذيذة ، تتأرجح بين الألم والفرح ، واكتناه اللذة ، تتعجب من قوته

الخارقة ، وتتعجب كيف حولها ، إلى التلذذ بالألم، إلى إنسانة

أخرى ، (مازوشية (لم تكن في الماضي كذلك ، لكنها كانت

تشكو من ضعف الرجال ، وقلة رجولتهم ، كانوا يذوبون ذلا تحت

قدميها ، ولعل الأنثى لا تحبذ ذلك النوع من الرجال .

اما رهوان الممتلئ رجولة وقسوة ، قسوة الصحارى والبوادي ، لا قسوة الحقد والتشفي ، إنها القسوة الرحيمة ؛ إن جاز لنا ذلك التعبير وهذا الوصف. إنه الخبير بالأنثى ، المتعسف في تعذيبها ، وتحويلها إلى (مازوشية) تتلذذ بالألم بينما هو يتلذذ بالتعذيب ، تعذيب المحب ، الذي يهوى تعذيب حبيبه ، المسرف في قسوته ، السادي في قطف لذته

، النادم بعد انتهاء الحفل، لأنه على في غلوه ، أو لأنه جرح وعذب فأدمى، أحيانا يعتذر من قسوته ، ويندم ، وأحيانا يفتخر ويتعالى كالطاووس .

فتقول دارين :

- لا تسمع الصراخي وتألمي وتأوهي ، ولا ترحمني ، اقس على أكن ساعتها ، في منتهى اللذة والسعادة والنشوة .

أكنت من قبل هكذا ؟

- لا أنت من عودني على ذلك فاستعذبته، كنت احتقر أشياء الرجال المائعين ، الذين يتمسحون على أقدام امرأة ، وكنت على العكس ، فاستعذبت طريقتك ، كانت أمي تشجعني على مصادقة الرجال ، من المجتمع المخملي، لكنني كرهت هذا النوع من الرجال ، إنهم لم يأخذوا حقهم من الشمس والشقاء ، والتلوث بعناصر الأرض ، ولم يعجبوا بالسنديان ويحاكوه ، أو يكونوا كالكروم في عطائها ولذتها ، بل كانوا كالخلد أو الجرد ، يكرهون الرياح العاتية والشمس الساطعة ، أما أنت يا رهوان فمختلف ، إنك ابن الطبيعة القاسية الرحيمة ، في الوقت ذاته .

الغداء معه مختلف ، والشراب كذلك، والحديث صدى البراري الشاسعة ، إنه تجسيد القوة الجامحة ، التي تقمصت رجلا.

النوم و القيلولة ، بعد حوار الجسد ولقاء الروح لذيذ ، والنوم بعد التعب والرغبة ، ألذ وتمتد القيلولة ساعات ، يعود النشاط للجسد ليعودا للوعي، بعد ذلك يشربان القهوة ، أو

يسهران في أحد المقاهي الراقية ، لم يظهر هو وإياها في ملهى، أو مكان منحط ، بل كان يحافظ على سرية العلاقة ونظافتها .

تعود لأمها آخر الليل ، منهكة خائرة القوة والقوى ، بحاجة إلى أن تستسلم لنوم عميق لكن الأم ما تفتأ تسألها :

إلام ستبقى هذه الحال ؟ وماذا سيقول الناس عنا ؟

ليقولوا ما أرادوا ! أنا وهو لا تعرف مالها ، القدر نفسه

سيحدد لنا المصير.

اطلبي منه الزواج أو انتقلي إلى وزارة أخرى .

كل شيء سيأتي في وقته

ومرة سألتها أمها وهي تنصحها على حد زعمها :

أنت يا بنيتي ، في ظرف ومكان ، يؤهلك لجني المال بسهولة ويسر ، فمساعدة الناس في التوظيف ، يقابلها الحصول على مال وفير وغزير بدون تعب ، لقد خسرنا ميراثنا في لبنان ، و لا بأس من تعويضه من هذا السبيل ، وإلا سيبقى عزيز بن عديلة

الأقرع ، متفوقا متباهياً شامخاً بأنفه .

هذا لن يكون أبدا - لأن رهوان منذ نقلني مديرة مكتبه الخاص ، وأعطاني الصلاحيات الكاملة - حتى قالوا عني أنني مديرة الظل - أوصاني بنظافة اليد ، فلن أعصي له أمرا ، وإذا فعلت سيكتشف الخيانة ، وعندها سأدفع الثمن غاليا.

إن الفعل الذي أرشدك إليه ، فيه مساعدة للآخرين ، وثراء

لك ! وكل شيء بمقابل في هذه الأيام .

قال لي رهوان مرة :

إن الحصول على الوظيفة ، يجب أن يكون مقابل الكفاءة، فإذا وظف شخص بدون كفاءة في مكان يحتاج الكفاءة ؛ عد ذلك تخريباً للوطن، وبالمحصلة سيدفع الجميع ثمن ذلك إن وضع الرجل المناسب ، في المكان غير المناسب ، أقصى ما يأمله عدو، وإذا فعلنا هذا ، تخدم العدو ونخرب بلدنا ، إن رهوان رجل ملذات وخير ، ولكنه ليس خائنا لضميره ، أو عمله ، أو وطنه .

يئست أمها منها ، ولم تعد تفتح مثل هذه المواضيع ، بل

قالت لها :

مادام يملك كل هذه الطهارة والإخلاص للوطن ؛ فلم لا يتسلم ويصعد كرسي الوزارة ؟

- كل شيء بأوانه ، وربما يصبح كذلك ، إن رهوان قوي ، وقوته مصدر خشية من يخشونه، لأنهم لم يهتدوا لنقطة ضعفه ، حاولوا إيقاعه، لم يفلحوا، لذلك هم يحذرونه ويرهبون جانبه .

وفي إحدى الجلسات المسائية ، حادثته دارين ، بأمور العمل

فقالت :

- أنت تكره الفساد ، ولا تمارسه ، لكنك كثير المال ، فمن اين تحصل عليه ؟

- سؤالك منطقي ، فمصروفنا ضعف الراتب ، إن لم يكن أكثر ، ولكن القيادة لا تبخل على من أخلص لها ، لقد هبطت المدينة من البادية ، وعندي وعند أهلي آلاف من رؤوس الأغنام العواس مازالت تتوالد وتتكاثر ، وتنتج ويرسلون لي حصتي في كل عام ، وفي المواسم، ولو طلبت أكثر لأعطوني ، لقد قررت منذ بداية حياتي أن أكون نظيف اليد، أحببت النجوم ، وأردت قطافها ، وتعليقها على كتفي ، فعلقت الكثير منها ، وعندما جاء ذلك اليوم ، الذي أراد الله امتحاني ، وضعني في موقف أراد فيه رئيسي إذلالي ، رميت النجوم وهشمته ، وانتصرت الكرامة على الوجاهة و على النجوم اللامعة ، بقي عندي أعظم منها نجوم السماء المتلألئة ، في ليل البراري الشاسعة . ربما تعتقدين ، أنني لست برجل مبادئ لأنني أشرب الخمر وأمارس الحياة ؛ إذا كنت تعتقدين ذلك ، فأنت مخطئة ، ربما تكون مديريتي هي من الإدارات والمؤسسات القلائل ، التي لا يمارس فيها الفساد ، ولا تهدر فيها ساعات العمل إن خوفاً وإن قناعة . المهم أن الفعالية والجدية والانضباط ، متحقق فيها وهذا لم يكن قبلي ، تحقق بعد مجيئي إليها وقد كانت سائبة ، ولا تظني أنهم تمسكوا بي لسواد عيوني ، بل لقدرتي على العطاء ، والإنتاج ، وضبط الأمور، ولكنني قررت أيضاً ، أن لا أحرم نفسي من متع الحياة ، منطلقا كحصان متوحش في البراري المنفتحة ، يصهل للحب و للحرية ،

وبي جوع تاريخي مزمن للجنس والخمر ، لا أرتوي منهما أبدا ، لكنني معك اختصرت الحب والجنس ، في امرأة فريدة ، فائقة الجمال ، تحقق الملذات المحرمة ، والنشوات الحاذقة ، فعليك أن تتيقني، أنني لا استطيع التخلي عنك ، إلا بالموت ، فأنت التي أنزلت آدم من جنته، وأدخلتني إلى جنتك الخاصة جدا، وقبلك كان الجحيم ثاويا في روحي، وفي جسدي ، والملح يسري مع دمي في عروقي، لن أخونك أبدا لأنني اقتنعت بك ، والقناعة أس الاعتقاد.

واقتنصت الفرصة المواتية :

فسألته :

إذن لماذا لا تتزوج وترتبط ارتباطاً أبديا، ونخرج على الملأ كزوجين

- رباطنا الآن أقوى من رباط الزوجية ، كنت ترتبطين مع سعيد برباط الزوجية ، ولكن بلقاء معي ، أو لقاءين ، كان رباطك الزوجي مع سعيد ، في خبر كان . إن الشمس الساطعة تبدد الضباب الرمادي الواهن . وإذا تزوجتك اليوم فكيف ستكونين المديرة الخاصة بالمدير، وزوجته في الوقت نفسه ، سيؤلفون القصص ، و الحكايا ويؤولون الأحداث ، فيظهر الحقد والدس والافتراء ، في وضعنا الحالي ، لا يستطيعون ذلك حتى ، ولو رأونا نجلس في مقهى عام محترم ، فهذا أمر عادي ، ينم عن صداقة أو تداول بأمور العمل، فالسكرتيرة الحقيقية تنظم للمدير حياته ، بل ربما توحي إليه بأفكار ، تؤثر على قراراته .

اقتنعت بقوله . وقالت :

- سأكون معك إلى الأبد مخلصة وفية، وكما قلت أنت ، لن يفرقنا إلا الموت .

وعلمها أصول قيادة السيارة ، ودربها عليها وحصلت على إجازة سوق وصارت ، تقود سيارته، فيركب إلى جوارها ، ولما تأكد من مهارتها ، خصص لها سيارة حديثة أنيقة ، وسهل عليها ذلك تنقلاتها من المديرية للعدوي ، أو في العودة ليلا إلى الشعلان .

وكسبت ثقة هائلة في النفس ، واعتراها طموح وأمل كبيرين في مستقبل واعد .

كانا يذهبان في يوم العطلة في رحلات صيد ، فقال لها :

عليك تعلم الرماية ، كما تعلمت قيادة السيارة ، كان أمك لم تعلمك الأشياء المفيدة في الحياة ! ماذا تعلمت من أمك؟

الحياة المخملية ، التي خنثت أخي، وقادتني إلى براثن الثعالب ، كنت ارتاد المقاصف وكنت أظن أنني أنجز شيئا ، في الحقيقة كنت استنزف ذاتي ، معك تغيرت نظرتي للحياة ، وأدركت أن الحياة الحقيقة ، أن نعيشها بقساوتها ومراراتها ، وأن ننعم أيضا بملذاتها ، وتكون صادقين مع النفس والآخرين ، وألا نكون عبدة المال أو خونة الضمير خير مما علمتك أنا ، ومما تعلمته مني، هو التعلم من كل الناس ، فكل شخص كتاب له أفكار ، وليس من الضروري الإيمان بأفكار كل من تقرئين ، بل أن تتراكم لديك ثقافة قراءة النماذج ، وعلينا أن نحسن القراءة ، قد نحتاج مرة لدخول مقصف ، ولكن لتحقيق غاية ، لا حبا به وأفضل من ذلك البراري الواسعة ، والتواجد في ملعب الصراع مع مخلوقاتها ، يقولون إن البقاء للأقوى في الغابات ، لكنني وجدت أن ذلك حقيقة ، حتى في كل مناحي الحياة ، ووجدت أن الإنسان أقوى مخلوقات الطبيعة ، ولكن عليه أن يثق بقوته باعتقاد راسخ .

كان يوجهها دوما ، ويرفع معنوياتها ، وهذا ما شجعها على تنفيذ تلك الأفكار. فتعلمت الرماية وصيد الأرانب ، ثم صيد الذئاب فيما بعد .

قال لها :

عليك تعلم صيد الذئاب والضباع ، لتشعري بقوتك ،

وتكسبي الثقة الكاملة بالنفس .

- علمني صيد الذئاب البشرية أنفع لي وأجدى .

سيكون ذلك ، بعد أن تتعلمي صيد ذئاب البراري .

قال لها يوما :

عليك إتقان اللغات ، فنحن نذهب في العام شهرا إلى دولة أجنبية ، لنتعلم أصول الإدارة عند الآخرين ، ونطلع على آخر المنجزات ، ونرفه عن أنفسنا من تعب العام .
فاقترحت عليه أن تنتسب لمعهد لغوي راق ، لتتعلم طلاقة اللسان في الإنكليزية والفرنسية ، مع أنها تلم بهما إلماما جيدا وخاصة الفرنسية ، التي أتقنتها في لبنان ، فأدخلها أفضل معهد لتعليم اللغات في دمشق ، وأوصى بها المدرسين ، ومضت شهور فيها عناء وتحضير وتعب لكنها تخرجت بتفوق .

حان وقت الإجازة السنوية ، إلى إحدى الدول الأجنبية ، للاطلاع على أحدث سبل وأساليب الإدارة ، والأجهزة المتطورة ، الواجب إدخالها للإدارات ، فالإجازة للاطلاع العلمي وللترويح عن النفس أيضا ، فكان يصحبها معه في كل سنة شهرا إلى دولة أجنبية ، وكان هذا الشهر بمثابة شهر عسل .

ومرة قال لها :

نحن في كل عام نتزوج من جديد ، ونعيش شهر عسل

جديد ، في دولة جديدة .

- نعم هذا صحيح فبهذا الشهر ، نعيش حالة عشق جديدة ، بسبب تغيير المكان ، وربما كان الحب قد تجدد وتألق أكثر ،

بروعة المكان . المهم أننا نكتسب ثقافة وعلما في الإدارة وتحديث الأجهزة أيضاً ، وأقوي أنا لغتي الأجنبية ، لأنني أمارسها بشكل واقعي وحي .

ومن جملة البلدان ، التي زاراها الصين وماليزيا ، وبلدان جنوب آسيا ، وفي أوروبا زارا إيطاليا وألمانيا والنمسا ، وأعجبت أكثر ما أعجبت بفرنسا ، تلك الدولة الحضارية الراقية ، في كل شيء ، فكرا ، وثقافة ، وتجديداً ، واهتماما بالأمور الإنسانية ، وأثناء تجوالهما فيها ، علمت أن في فرنسا معهدا عالياً لفن الإدارة، تخرجت منه نساء عملن مديرات لحكام في بلدان عدة ، ففيه يتعلمون أصول السياسة ، وتاريخها ، وممارستها ، والأصول الاجتماعية ، وأصول الاتصال ، والاستقبال ودور العلاقات العامة في الإدارة . أحبت هذا العلم ، وتعلقت بهذا المعهد، فاقترحت عليه أن تبقى في فرنسا ستة

أشهر ، وتنتسب لهذا المعهد العالمي ، وتخوض غمار دورة شاقة ، لتتخرج بعدها مديرة مكتب ، على مستوى رؤساء الدول

أعجب بالفكرة أيضا ، وسر لأفقها الذي تغير واتسع ، واسترعت انتباهه ، شخصيتها الجديدة الناهضة ، وجلسا في الفندق يناقشان الأمر ، فاقتنع بالفكرة المبدعة ، واتصل بالوزارة التابع لها ، مقترحا الفكرة والموافقة ، لكي تبقى دارين في فرنسا ستة أشهر ، ولتكون الدراسة كمنحة على حساب الوزارة ، وجرت اتصالات مع السفارة في فرنسا ، والخارجية ، فوافق المعهد على قبولها . فقالت له :

هذا أروع حلم تحقق في حياتي ، كنت ميتة وحييت ، وعاجزة فنهضت .

وبقيت هناك في فرنسا ، واستأجر لها غرفتين تطلان على نهر السين ، لأنها لا تحب الفنادق والغرف المفروشة. وعاد هو إلى دمشق وحيدا ، سُر لطموحها ، ولكنه حزن لفراقها هذه المدة الطويلة ، وأخبرت أمها بالأمر ، ففرحت فرحا عظيما ، وزار رهوان أم جميل في بيتها حاملا هدايا قيمة . وفصل لها الحكاية ، وأن ابنتها ستصبح من حملة الدبلوم الراقي ، فطارت سعادة

وفرحا . وفي اليوم التالي أخبرت نبال ، عديلة وابنها عزيز ، بأن ابنتها دارين قد أوفدت من الوزارة إلى فرنسا ، و حصلت على

منحة للدراسات العليا في باريس . فقال لها عزيز :

أبارك هذا الانجاز ، لقد فرحت لأختي ما تحققه . ما نوع الدراسة التي ستتخصص بها ؟ لا أدري ! ربما إدارة أعمال أو دراسة فن الإدارة ، شيء من هذا !

لم تقل أنها ستتخصص في شؤون الإدارة البسيطة ، فام جميل دائما تحب المظاهر ، وتعتني بالشكل ، حتى ولو اضطرت إلى الكذب .

وعاش رهوان شهوره الستة ، كتيباً حزيناً، لكنه لم يدخل امرأة إلى بيته ، كما وعدها وكان يذهب في العطلة الأسبوعية ، إلى البادية لصيد الذئاب والأرانب والغزلان ، ويتمتع بمنظر الأغنام ، تعود من المراعي قبيل الغروب ، يتقدمها كبش في رقبته جرس وأمامه راع على حمار ، تبهجه مضارب البدو وتعود به إلى طفولة قاسية ، ويملأ رئتيه برائحة الأعشاب والزهور البرية فيرتاح وينتشي .

كان يتصل بدارين كل يوم واحيانا هي تفعل كذلك ، ووجد عنده فائضاً من الوقت ، فانكفأ إلى القراءة وزيارة زعمائه في الحزب ، أو معارفه في مفاصل الدولة ممتنا معهم أواصر الصداقة والود .

وبعد أسبوع من مغادرته باريس وتركها هناك، رن الهاتف في بيته بوقت متأخر من الليل. وقال صاحب الصوت :

هذه أنا التي تتطفل عليك في آخر الليل، مقتحمة مخدعك .

كان أحلى رنين سمعته وأجمل صوت أتاني من فوق الغيم كالبشارة ، كنت أحن لسماعه وقد غاب)

- ما الأخبار ؟

- تعرفت إلى فتاة فرنسية تدرس معي في المعهد نفسه ، تدعى (سيزي لوران (وهي مديرة مكتب في دائرة مبنى بلدية باريس للتوصيف ، وتخطيط المباني ، ويعادل عندنا السجل العقاري ، وعرفتني إلى أخيها سيمون الطالب في (السوربون)، وقد تجولنا معا في رحلة ساحرة ، لبعض معالم باريس ، . فزرت برج (إيفل (إنه تركيبة معمارية ، رائعة وبانيه هو

المهندس) غوستاف إيفل) ، فيه طوابق ثلاث في الأول ، المتحف السمعي البصري المخصص لقصة تشييده ، وفي الطابق

الثاني ، عدد من المطاعم ومحلات بيع التحف التذكارية ، أما الطابق الثالث ، ففيه متحف المهندس إيفل ويقع على ارتفاع منتين واربعة وسبعين مترا ، وأخذنا الصور التذكارية لكل المعالم .

- وماذا زرت أيضا ؟

- زرت قوس النصر.

أظن أننا شاهدناه معا .

د - صحيح ، ولكنهما - أقصد سيزي وسيمون - شرحا لي شرحاً وافيا عنه ، فقد بني في القرن التاسع عشر ، وأراده نابليون رمزا ، ليخلد انتصاراته ، لكن إنجازه ، تم في عهد لوي فيليب وهو من أعمال النحات رود ، ويحيط بأعلاه، نحت لمئات الجنود

بارتفاع مترين، وإذا صعدت إلى أعلاه ، سترى جادة) الشانزليزيه) حتى ميدان (الكونكورد) وحدائق (التويلري) الواقعة خلفه

- لقد أنجزت الكثير ، بأيام قلائل ولكن هل أعجبك سيمون ؟

- إنه جميل ، خلوق ، جدي ، و صادق، عندنا يبرع الشاب في الكذب ، حتى تقع الفتاة في حبه ، فيغويها ثم يغادر ، فيخسرها ويتركها معقدة بسبب غدره ، فتقوم هي بدورها مع آخر تغدر انتقاماً ، ثم تترك ضحيتها وهكذا ....

في باريس لا يوجد شيء من هذا ، إذا قال لها أحبك ، صدق ، لا خداع و لا موارية ، يصادقها بدون وعود ، وأحيانا يساكنها ، ولا يتزوجها إلا عند الاقتناع الكامل ، أجد أنهم يحفظون

الأمانات . وفي كل الأحوال لا يجوز التعميم ، فمثل ما يكون في مجتمعنا الصادقون الجديون، يكون عندهم أيضا المعقدون الشاذون ، ولكن بنسب قليلة جدا ..

سررت جدا بأخبارك المفرحة ، وبعد غد سأتصل بك في مثل هذا الموعد ، تذكري رهوان قبل النوم ، لأنه سيكون إلى

جانبك في السرير ، تضاحكت بغنج مثير ، وقالت : أنت معي دوما ، وفي كل الأوقات ، إلى اللقاء .

في اليوم التالي ، التقى برفيقه القديم ملاذ إسبر المحامي ، ولكنه الآن يشغل منصبا قياديا هاما في الحزب والدولة ، لم يعد يترافع أو يستلم القضايا ، لكنه يسهر في مكتبه ، ويلتقي بأصدقائه الخلص بعيدا عن الأعين ، جلسا وحيدين ، على فنجانين من القهوة .

قال رهوان :

ما أخبار الوزارة الجديدة ، وما الترشيحات ؟

سنتشكل وزارة جديدة ، يبقى فيها بعض الوزراء القدامى ويدخل جدد ، ولقد رشحتك قيادة الحزب ، وبتزكية مني المنصب وزير ، ولكن هناك من طعن فيك، من السلطة الإدارية

لأي سبب؟

وصفوك بالمدمن ، والأهوج العنيف .

- من هؤلاء؟

- لن أقول لك أسماء لأنني لم أنس خطيئتك عندما هشمت

رئيسك العميد .

الآن الوضع مختلف ! ولن أذيع السر ، أو أذهب لأعاقب من أعطى رأيه، بعدم أهليتي، هذا هو رأيه وهو حر فيه .

أبو رافت الدلو

وزير المستوردات والجعل المدعومة ؟ !

هو بذاته .

لكنه لا يعرفني حق المعرفة ، فكيف يقيمني هكذا ؟

هو بحاجة إلى تقييم ، وتدور حوله إشارات الاستفهام !

من أي ناحية ؟

- خلال سنتين أصبح من أصحاب المليارات ، ولكن ملياراته ليست في المصارف السورية ، وبمصارفنا لا توجد مبالغ باسمه ، أو اسم أولاده أو زوجه .

- كيف عرفت ذلك ؟

دار. أقوال من هنا وهناك ، تحتاج لإثبات ولكن ، لا دخان بلا

كيف حصل عليها ؟

تعرف أن الرز والسكر والشاي والزيت، مواد مدعومة من الدولة ، وتشتريها وزارته بعقود خارجية ، وتحمل بالبواخر وتصل للبلد ، عمولته المشروعة منها ، خمسة بالمائة توضع باسمه بحسابات سرية ، وإذا اشترى نوعا ثانيا من هذه المواد ، وسجله على أنه من النوع الأول ستتضاعف حصته أما إذا أدخل الرز المسوس، والشاي المعفن ، والزيت السيئ المكرر ، فإن حصته خيالية ، وقد وردت بعض الشحنات بهذه المواصفات

- أين الرقابة والتفتيش؟

رفعت تقريرها بهذا .

فقال لهم مسوغاً ، فسدت في البحر ، لطوال المدة والرطوبة ، وأبرز تقارير مزورة ، ونقد من المساءلة . أبو رأفت الدلو يفعل هذا ؟ ثم يقيمني بأني مدمن أهوج ؟

القيادة تعرف أنك نظيف اليد ، إداري حازم ، ومديريتك الوحيدة - وربما قليل غيرها - ينتفي منها التسيب والفساد .

إذن لماذا استبعدت من الترشح .

أنت رجل نظيف قوي ، لا تركع ، ولا تساوم أحيانا ، تستوفي حقك بذاتك ، والكل يخاف منك ، ما عدا الشرفاء ، فيتحارون إليك ، إن القوي يخيف الضعفاء ، فيبدون إزاءه رجالا ضعفاء ، وهو لن يرضى بالفساد والمفسدين ، فيحبط أعمالهم ويكشفهم أسرارهم ، أعرفت لم تم استبعادك ؟

الوزارة لا تهمني ، والحقيبة الوزارية اتفه من طموحي .

- ما طموحك إذن ؟

ان ارى بلدي قويا بين الأمم ، وألا أجد الذئاب ترتع فيه وتفتك بالغنم . وأنا يوم دخلت الحزب ، كنت أتوخى ذلك على يديه، فلقد أعجبت بمنطلقاته النظرية ، ولكني أرجو أن تكون منطلقاته

العملية مثل ذلك ، فوجود أمثال الدلو يجعلني أشك في هذا .

- أنا مثلك أكره النفاق ، وأخشى المنافقين ، لأنهم أخطر

من الأعداء .

- سنلتقي دوما على الصدق والوفاء ، لأن التقاء الطيبين الصادقين ، كشف للفاسدين المارقين.

ودعه وخرج مغتما ، لا لأنه خسر الوزارة أو طعن بترشيحه، لكنه وجد أن النضال لم ينته بعد، بل ربما لن ينتهي أبدا بين الأبيض والأسود، والحق والباطل . والمشكلة ليست

شخصية ، إنها مصير الأجيال والأوطان ، وفكر بالأمر مليا فوجد أن عليه أن يظل مرتديا لباس الميدان الكامل ، طيلة حياته ، مستعدا للمجابهة وللقتال دوما ، أينما وجد خطأ أو فسادا ، هذا القتال الذي يتخذ عدة صور ، في كل مرحلة من المراحل ، منها العمل الجاد ، في سبيل المثل والدفاع عنها ، أو كشف الفساد والمفسدين لإبعادهم عن الدفة .

وقال في نفسه مجادلا :

لكن أليس في كلام أبي رأفت الدلو شيء من الصواب ؟ الست أحب الخمر ؟ لدرجة الهوس؟ ولكن ماذا قدمت لي الحمر؟ إلا الأوهام؟ وعاد واستدرك ، إن الخمر تعيد لي القوة ، إذا تراخت وتخفف من الغطرسة إذا استبدت ، فهذه العلاقة جدلية بيني وبينها ، ويصعب انفكاكها ، وعاد واستدرك ، ولكن صحيح أن للخمر نشوة وفرحة، ولكن تعقبها حسرة وحزن ، ولم تحقق لي تقدما في أي مجال ، بل العكس أصبحت نقطة ضعفي ، التي ينالني منها أعدائي ، وهي القوة التي تدفعني للتهور ، أو تشوش الذهن ، ونحن بحاجة الآن ، للصحو لا لتشتت الإدراك

جاء القرار فجأة ، وكأنه كان يختمر في الدماغ ، منذ وقت

طويل

قال في نفسه بحزم :

لقد قررت هجر الخمر ، وأنا قادر على ذلك ، بقوة إرادتي الأشبه بالصوان ، ذهب إلى البيت ، وكسر كل زجاجات الخمر ، و أهرق ما بداخلها ، فارتاح وشعر بأنه أنجز شيئا عظيما

و خطرت بباله دارين فأراد أن ينبئها بما عزم عليه فاتصل بها .

- كيف أنت دارين ؟ اشتقت لعيونك وحنانك، حدثيني عن أخبارك .

وأنا كذلك اشتقت إليك ، ولم تستطع باريس أن تأخذني منك ، مدينة النور رائعة، ومعالمها شامخة وتاريخية .

ماذا زرت من معالم ؟

- زرت جادة (الشانزليزيه) وميدان (الكونكورد) وذهبت مع سيزي ، إلى مكان عملها في مبنى بلدية باريس ، ثم عرجنا على أوبرا غارنبيه وهي أكبر مسرح موسيقي في العالم ، تسع قاعتها ألفي متفرج وخشبتها المسرحية الواسعة أربعمئة ممثل في وقت معا ، وأخيراً زرنا (البانثيون (وكان بالأصل كنيسة ، ثم صار مقبرة للعظماء ، ويضم رفات (جان جاك روسو _ وإميل زولا - وفولتير - بالقرب من الحي اللاتيني الشهير ، وقربه مكتبة) سان جنيفيف) ، الذي يضم أكثر من مليونين وسبعمائة ألف مخطوط ومطبوع ، وغير بعيد عن جامعة (السوربون) كنا في مواجهة حديقة (لوكسمبورغ) ، وأخيرا تمشينا في غابة (بولونيا)

- ليتني كنت معك ، فبوجود الوقت والدليل يكون التمتع أكبر، والفهم أكثر من الزيارة الماضية ، وقت كنا معاً هناك ، أعجبني ميدان (الكونكور)

- فعلا إنه رائع ، إنه امتداد لحدائق (التويلري) ، تطل عليه كنيسة (لا مادلين ومن الغرب مجلس النواب ، وتتوسطه مسلة فرعونية من الأقصر بمصر ، أهداها محمد علي لـ (شارل العاشر) ، وفيه المفصلة التاريخية ، التي قطعت رأس كل من) لويس السادس عشر) والملكة (ماري أنطوانيت)

- كم بي رغبة للعودة إليك ! لنطوف تلك العاديات و الأماكن

- هل تستطيع ذلك بعد فترة ؟

لا ! ولكن في المستقبل ، بعد سنوات قد نفعل ، سأخبرك أمراً ربما يفرحك ..

ما هو قل بسرعة ؟

- لقد تركت الخمر إلى الأبد .

هل حدثت معجزة ؟ وكيف توصلت إلى هذا القرار ؟ !

كرهته فجأة وتوصلت لهذا القرار.

هذا أجمل خبر أسمعه في حياتي ، أهنئك وأشجعك ، ولكن المهم الإرادة .

عندما تعودين تجدين رهوان متغيراً وربما مختلفا

المهم ألا تتغير مشاعرك نحوي .

هذا لن يحصل أبدا .

- نعم القرار ! فنحن بحاجة للصحو واليقظة، وليس للسكر والعربدة، المستقبل واعد والهدف ينقاد لمن يسعى إليه ، وأنت يا رهوان ، أمامك مستقبل عظيم .

- لا تتفاءلي كثيرا ، فالوديان مليئة بالذئاب

- أنت صياد ذئاب ماهر ، لا أخشى عليك منها، تناجيا قليلا بالغرام ، مذكرا إياها بلياليهما الرومانسية ، وبالرغبة الطاغية ، فقالت :

- كم أنا مشتاقة للعودة ، ولتلك الطقوس اللذيذة الرائعة . ودعها ، وأغلق الهاتف .

8

كان زواج عزيز من الطبيبة رضية ، مدخلا لحياته السعيدة الرغيدة ، وقد اقتنعت هي به لعصاميته ، وجديته ، وعقلانيته ، واخلاقيته بالدرجة الأولى . صحيح أن هناك فرقا في التعليم ، ولكن هذه الهوة ردمت ، وسد الفراغ بالمساواة والشهادات الثقافية ، التي استدركها عزيز بالمطالعة المستمرة ، التي أغرم بها، وبالمناقشات التي ساهم فيها ، وحضوره جلسات المثقفين والأكاديميين في مقهاه ، وهو ما أكسبه صف لا أكثر ، ووعيا أكبر ، لذلك لم تجد رضية فروقاً من هذه الناحية ، بل إنها قد وجدت عنده بعض أفكار ، لم تطرق بالها، أو تخطر في خيالها ، وأعجبت بتقبله العلم والثقافة ، وقد ناله على كبر ، وأعجبت بتواضعه إزاء أفكارها الموضوعية ، التي لا تحتاج للنقاش ، ومن الله عليهما بأربعة ذكور ، بكرهما توام ، أحدهما حمدو ، تيمنا باسم أبيه ، و الثاني أدهم تيمنا باسم الشيخ الحكيم أدهم العنتبلي ، الذي أرشده إلى عيادة الدكتورة رضية ، فكان الحب والتفاهم، والثالث : حازم تيمنا باسم الدكتور ، حازم النقراشي مدرس علم الاجتماع والفلسفة في جامعة دمشق ، والذي كان يرتاد المقهى مع شلة من

الأكاديميين ؛ وأصبح عزيز فيما بعد صديقه يجالسه في كل مرة

يأتي إلى المقهى ؛ وينسحب بعد نصف ساعة ، أو أقل حسب

الظرف ، أو يستمر طيلة الجلسة ، مستمعاً إلى أفكاره ، وأحاديثه ، ونقاشاته ، ومجادلاته مع زملائه الحاضرين ، والتي كان عزيز يشارك فيها ، بعد أن توسعت ثقافته من قراءة الكتب ، وبعضها كان يجلبها له ، وينتقيها حازم النقراشي نفسه ، وأما الولد الرابع والأخير ، فقد ولدته رضية ، بعد عودة أخته دارين ، وأمها من

لبنان بسبب الحرب الأهلية، وجاءه نعي أخيه جميل ، بعد ذلك و الذي حزن لفقده حزناً شديداً ، صحيح أنه كان طيلة حياته له ناقدا، لكنه نقد المحب الذي يسعى لخير من أحبه ، فاستأذن من خالته نبال واخته دارين، بأن يسمي ابنه الوليد جميلا تخليدا لذكرى أخيه ، الذي مات في لبنان، فوافقت نبال على ذلك .

ومر الزمن سريعا وكبر الأولاد ، وتعاظمت إمكانيات عزيز، بمختلف المجالات ، فقد أصبح ثريا ، ويملك مالا كثيرا ، وكذلك زوجته من عيادتها ، ومما ورثته من أبيها وتناقشا في الهدف من المال المجموع ، واحتارا بكيفية توظيفه، فالغاية ليست تكاثره فقط بل يجب أن تكون له غاية اجتماعية ، وهدف إنساني نبيل ، واتفقا على بناء مشفى خاص ، في حارته القديمة فلا يوجد مشفى ، ولا مستوصف ، ولا مركز طبي، وأن يعمل فيه أولادهما، بعد أن يتخرجوا من كلية الطب ، ويكون الكشف فيه شبه مجاني إضافة إلى انتقاء كادر طبي متمكن ، يرضى بالقليل ، ويسعى لفعل الخير ، فليست الغاية استثمارية بحتة ، بل رد جميل للحي الذي أنبتهم نباتا حسنا ، وصارا يبحثان عن المكان المناسب.

وتوالت لقاءاته برواد المقهى المثقفين، وتشعب النقاش ، ومرة سأل عزيز ، الشيخ أدهم عن الأخلاق ، فقال الشيخ أدهم :

- الأخلاق كلمة واسعة فضفاضة ، يصعب حصرها في تعريف جامع مانع ، إنها أحيانا متغيرة ، مثل العادات والتقاليد ، بعض العادات ملتبسة ، نظنها قيم أخلاقية مع أنها مع الزمن تتغير مثل عادات اللباس بين الشعوب ، لاشك أن الحشمة ، عادة

مشتركة ومحببة بين جميع الشعوب ، ولكنها تطورت مع الزمن ، وليست مقياساً لجوهر الأخلاق ، مع أن المظهر أحيانا يعبر عن الجوهر، وفي هذه الحالة ، العقل هو المقياس ، وأحيانا تكون القيم الأخلاقية ثابتة أزلية، لا يعتريها تغيير على مر الأزمان ، فالصدق من الأخلاق الثابتة مدى الدهور، والأمانة من الأخلاق الثابتة مدى الدهور، قديماً امتزجت الأخلاق بالأديان ، فحصرت بالوصايا وبالمحبة والتسامح ، وتوسع بها الإسلام فجعل من النظافة مثلا : قيمة دينية وأخلاقية ، وإماطة الأذى عن الطريق : قيمة أخلاقية أيضا ، وتبسمك في وجه أخيك : قيمة اخلاقية ، وعدم هجره - مهما تكن الأسباب - قيمة أخلاقية ، فإذا تخاصما والتقيا فخيرهم من يبدأ صاحبه بالسلام ، حمل المسؤولية أمانة ، والصدق بكل صوره : اخلاق و أمانة ، وفي أكثر الأحيان ، تتماشى الأخلاق مع تعليم الأديان ، التي لم يعتريها التحريف والتأويل ، إنها المحبة ذاتها ، وممارستها لذاتها ، ولذلك فإن الحقد أبعد ما يكون عن الأخلاق

وجوهر الدين .

قال الدكتور حازم النقراشي :

ما أروع كلامك يا مولانا ! إنه در منثور شامل جميل ، حقا إن ما يؤثر في النفس هو السهل الممتنع ، نحن ندرس الأخلاق والمنطق لطلاب الجامعة ، بكلمات ضخمة فخمة واسعة شاسعة ونقول عن الأخلاق بأنها الحق والخير والجمال، ولكن الناس ، تحتاج للتفاصيل المصبوبة بقالب أنيق بسيط ، وقليل التعقيد ، قريب من أذهان الكثير من الناس، وها أنت يا مولانا ، قد فصلت فأوسعت، وبسطت فأفهمت ، وعلينا في تربية أولادنا ، أن نسلك ما سلكت وأن نعمل بما قلت.

كان يحضر المجلس أولاد عزيز، ولاحظ الشيخ أدهم ، اهتمامهم الفائق الانتباه، فقال لعزيز :

- لقد أحسنت بزج أولادك في معترك الحياة، ومازالوا في مقتبل العمر ، فالمجالس أحيانا تعلم ما غاب عن المدارس ، على الأقل تعلم أصول النقاش ، والانتباه ، تعلم الفرق بين الواقع والمثال.

ومضت سنوات ، عمل فيها عزيز وزوجه، على شراء عقارات دمجوها لتصبح مشفى الغد، ولقد كانت صرحا طبيا كبيرا الخدمة أبناء حيه القديم .

9

كان رهوان أول من يدخل مديرية التعيينات والتوظيف ، واخر من يغادرها ، لم يشد يوماً عن هذا المبدأ إلا وقت سفره ، وإجازته خارج القطر، وكان موظفوه ، يعلمون ذلك ، ويشاهدون سيارته تربض على باب المديرية ، فتعتريهم الرهبة ، و عندما يدخلون إلى مكاتبهم مباشرة ، يبدؤون العمل، فيحسدون زملاءهم في بقية الإدارات والوزارات ، حيث لا يأتي بعضهم إلا في التاسعة، وأحيانا في العاشرة ، ولا يبدؤون العمل إلا بعد القهوة وتناول الشطائر ، وتكون نصف ساعات الدوام قد طارت ، وكانوا يعلمون أنه قد ثبت) كاميرا (ليشاهد من مكتبه ، الداخلين والخارجين ، المتأخرين عن الدوام والخارجين قبل انتهائه ، وكل موظف يتأخر يعاقب بعقوبة زجرية قاسية ، وكان يرى من مكتبه المجد ، ويكشف المتقاعس ، أضف إلى ذلك مراقبة الفساد في مديريته ، فإذا ارتكب أحدهم جرما ، أو مخالفة يجمع كل موظفيه في قاعة الاجتماعات ليشهر به وبالجرم الذي اقترفه ، ثم يحوله إلى التحقيق والقضاء ، ولذلك كانت المديرية مثالية في انضباطها وإنتاجها وكانت القيادة تعلم بذلك فتثني عليه ، لكنه من ناحية أخرى كانت تعوذه الحنكة السياسية ، والتعامل الاجتماعي اللبق الناعم ، والدهاء السياسي ، وخلق

العلاقات المبنية على تبادل المنافع ، أو الأرضية المشتركة للمصالح، فقد ولد هذا الرجل في الصحراء كسنديانة ، أو كنمر ، ولم تستطع المدينة تدجينه، وأوتي حظا وفرصاً عرفته بالمسؤولين ، وعرفت المسؤولين به ، من خلال الحزب والفرقة العسكرية (الإسبرطية) ففهموه وتحاشوه وبعضهم كاد له ، ومازال يرجو ، إزاحته من الطريق ، وأهمهم كان أبو رأفت الدلو ، الذي ثبت في منصبه في الوزارة الجديدة ، بأساليبه الملتوية، وبسخاء يده ، لا بكفاءته أو جهده فرهوان أحق منه بالمنصب .

كان رهوان بعد الثامنة ، يرتشف فنجان قهوته ، ويطالع جرائد وصحف الصباح ، يطوف على مكاتب الموظفين فيرتعدون من هيبته ، وإذا وجد موظفا عنده لا يعمل سأله :

- ما عملك لهذا اليوم ؟ ولماذا أنت الآن عاطل ؟

فيتذرع الموظف ببعض الأسباب ، وإذا لم تكن مقنعة ، فيامر رئيسه بإضافة أعمال جديدة لهذا الموظف ، ويطلب منه إنجازها في فترة قليلة.

واليوم كان رهوان على غير عادته ، قد استيقظ برما ، منزعجا ، وجلس في مكتبه منقبضاً، ورغم أنه شرب قهوته ، وطالع صحفه، إلا أنه لم يكن منشرح الصدر ، ولم يعرف السبب، وعزاه إلى امتناعه عن الخمر ، الذي كان قد أدمنه ، ثم عاد وتركه بقرار حاسم لا رجوع فيه، إلى أن دخل ساعي البريد ، وسلمه رسالة وانصرف .

قلب رهوان الغلاف ، فزالت همومه وسقط عليه الفرح كبيدر من النجوم ، انهالت من السماء على طاولته ، أو معزوفة حالمة راقية ، عزفت في حلمه الوردي ، إنها رسالة من دارين ، فض الغلاف وأشعل لفافة تبغ ، والتهم السطور.

الرسالة طويلة ، ومعطرة بعطر فرنسي ناعم أصيل ، يسطع الحب منها ، كانبلاج النور غب الظلام ، وتتناغم ما بين

السطور، و وشوشات موج فائق في روعته ، لازوردي منفتح في

عزيزي الغالي رهوان

اخط لك الكلمات ، وأمامي يجري نهر السين ، متألقاً مزهوا ، وعلى جانبيه أشجار جميلة ، مترعة بالخضرة البديعة ، امتلأت بالعصافير المغردة النشطة ، أكتب لك ولكني لا استطيع تحميل السطور فوق طاقتها ، فما يجيش في القلب من عواطف ، يصعب تصويره ، ويعز وصفه إنه الحب والحنين والشوق ، فالحنين لك ولد مشق ، لا تستطيع السطور حمله ، ولا احتماله، إنه أكبر حتى من الخيال ، إن باريس جميلة ورائعة ، ولكنني أرى يعيون المحب أن دمشق وورودها وياسمينها ؛ أجمل وأبهى ، لاسيما أنت فيها ، أنت الذي غيرت حياتي بكاملها، واضات قناديلي المطفأة فانتقلت من دياجير الظلام ، إلى بهاء النور وشتان ما بين النور والديجور ، انتظر انتهاء الدورة في المعهد وأحلم بالعودة إليك ، وحتى ذلك الوقت أتمشى في غابات باريس ، وحقولها المثقلة بعرش العنب ومزارع التفاح ، وإن وجود

سيزي وأخيها سيمون إلى جانبي ، قد ساعدني كثيرا في التعرف إلى كل تلك الأماكن وبددا من صقيع الغربة الكثير ، وفي غيابهما تكون معي ذكراك وأغاني فيروز ، منذ أكثر من شهر ذهبت معهما إلى نادي الفروسية الباريسي ، ودهشت عندما أعلماني بأن هوايتيهما ركوب الخيل والسباق ، وشجعاني على ممارسة تلك الرياضة ، في البدء ارتعدت ، ولكن منظر الخيول الجميلة ،

.....

11- (العريش) ما يستظل بهِ وَمَا عرش للكرم والسقف (ج) عرش والعامة تسميه " عرائش .

الصعب أن تجد الخيول الهادئة ففى دمائها تكمن الحركة والثورة شجعني على خوض الغمار ، فأحضرا لى حصانا هادئا - ومن والانطلاق ، عندما اعتليته كان السائس يمسكه من رقبته .. على عرفه ، ثم أعطاني لجامه ، وتركني لفترة وحيدة، يراقبني من بعيد . ، ويربت

بعد فترة قال :

التعليمات. لا تخافي سيكون كل شيء على ما يرام ، طبقي

كانوا قد علموني أصول الركوب ، وكيف تقاد الخيول من لجمها ، وكيف تمتطى من ركاب سروجها ، ولكن الأهم قبل امتطائها ، خلق علاقة حميمة ، بين الفرس والفارس ، وذلك أمر سهل ومقتدر عليه ، فنظرة حنان للحصان ، وربت على رقبته ، وجبهته ، تخلق علاقة الصداقة والألفة ، بينك وبينه ، إنها أهون وأسرع من العلاقة التي تتكون ، بين البشر فالخيول ليست حذرة ، وخائنة ، إلى الدرجة التي وصل إليها البشر ، وربما وفية ، أكثر من كثير من البشر، ما أروع الخيل ! وما أذكاها !

انطلق بي الحصان ، وقد اعتراني فرح خالطه كثير من الخوف ، ثم صار سيره خبباً و هيدبة ، فاهتز كياني ، إنه أروع من الرقص بآلاف المرات ، لماذا يا أمي لم تخبريني بأن امتطاء الخيول أروع من أي رقص ! ثم أسرع فتمسكت بالسرج ، وشددت اللجام

قليلا ، فخفف سرعته ، داومت كثيراً على الركوب وانتسبت للنادي ، وتعرفت إلى صديق جديد ، ملم بالفروسية ، وعضو أصيل في ذاك النادي ، هو فرنسيس المايروني الذي كان

ودودا وساعدني في تكيفي مع الخيل ، خاطبني بعد فترة وجيزة

من التدريب :

يمكنك الآن أن تخوضي سباقاً ، وتركبي بسهولة خيلا .

الخيول لكنني لن أشترك بسباق إلا معك، سلطارد الثعالب في البراري ، وهذا أحلى من أي سباق، أظن أن الخيول تمقت السباقات المنظمة ، تمقت المضامير المسيجة والمرقمة ، وتفضل البراري المفتوحة، لكنها تنفذ سباقات المضمار مرغمة، أو إكراما لسائسها ، أما الانطلاق في القياقي ، فهو ما خلقت من أجله عندما أعود إليك أكون قد أتقنت اللعبة تماما ، عندما أعود إلى دمشق ، تمارس الفروسية ، وركوب الخيل في نادي الفروسية (بالديماس) ، أه لو تعرف كم تعطي الفروسية من الثقة بالنفس ، والاعتزاز بالكرامة ، ونبل الشهامة ، وكم كنت مقصرة بحق نفسي ، عندما لم التفت إلى الأشياء الرائعة في الحياة، عمي بصري عنها ، كانت قريبة مني ولكنني كنت بعيدة عنها ، لم يرشدني المرشدون إليها ، ولم تكن لدي بطانة الخير ، وافتقدت المرجعية ، أشتاق لصيد الغزلان والأرانب والذئاب ، معك في البوادي والمضارب ، فلقد تعلمت هنا عشق الطبيعة ، وكنت لاهية عنها ، مع أنها أجمل ما منحنا الله في هذا الوجود ، أذكر لقاءاتنا، ورحلات الصيد معاً ، وحديث المقاهي وسمر الليالي ، أشياء قيمة افتقدتها ، أذكر ليلي العابق بشذى الياسمين ، وبالتوق والرغبة واللمسة الحلوة ، وامتزاج الأرواح قبل الأجساد وموائدنا العامرة بالحب المخلص ، والفرح الغامر لا يعرف الإنسان قيمة الأشياء إلا حين يفقدها ، أو يغادرها ، لكنها ستعود عما قريب.

يواسيني في بعدي عنك ، تعلمي الأشياء قيمة أدرسها بشكل منهجي ، فبالإضافة إلى أصول) الإدارة) ومهامها ، ودورها في توجيه وحفظ وقت المدير ، علمونا أصول السياسة وتاريخها، وفن التعامل مع الرؤساء والمرؤوسين ، وعن أصول التعامل ، و ممارسته وعن الحنكة السياسية، عندما أتذكر نشأتي ، وتوجيهات أمي أندم 1 كيف أضعت أيامي الماضية ! لقد انتقلت بفضلك ومساعدتك ، من التفاهة والابتذال إلى الجدية والعظمة ، ومن اليبس إلى الاخضرار والإزهار والإثمار ، واقتنعت أن العقل يصنع الأعاجيب ، إذا وجه بمنطق وعلم وغاية ، والتمس الهدف المنشود ، بخطوات مدروسة ، كم هو حاسم في حياة المرء . التوجيه والتبصير.

محظوظ من قدر له أن يكون في حياته الأب الحكيم ، أو الأم الراشدة ، التي تنشئ الجيل العظيم ، لقد علمونا أن الأم التي تقول لابنها - أنت عبقري وسيكون لك مستقبل عظيم - تفعل كثيرا، لجهازه العصبي والعقلي ، وتحوله باتجاه العبقرية والعظمة ، وكانت أمي توجهني إلى ولوج ما سمته المجتمع المخملي ، وهي لا تدرك معناه ولا فحواه ، تتلمس جوهره - إن كان له جوهر - من شكليات الموسرين ، أو رطانتهم أو غنجهم ، وتريدني أنا وأخي جميل ، أن نتشبه بهم، وللإنصاف : فإن أبي قد انتقد أسلوبها، وحاول تصحيح نظرتها ، لكنها كانت عنيدة ، ومأسورة لأفكارها ولم تستخدم المنطق لأنها لم تؤت حظا من الثقافة العميقة ، والفكر المنفتح، فكانت ترى أن الحضارة ، هي التحرر من الثياب ، والانجرار إلى المقاهي ، والرقص مع الغرباء في الحانات ، وخلق العلاقات ، مهما كان نوعها وبأي ثمن ، ولم تكن لتعلم ، أن

الإعداد لتربية صالحة ، هي فعل تراكمي ، يرافقه منهج أخلاقي مدروس وأن إعداد الذات ، أو تمرين المخ على التفكير المركز، وإضفاء الجدية على التصرفات ، والأفكار ، ووضع الإنسان في كافة مراحل عمره ، من قبل الأولياء والمسؤولين على كافة الأصعدة في السياق العلمي والحضاري، يجعل منه إنساناً جديداً جديرا ، ليكون ابن زمانه لا خارج زمانه ، وفي مجتمعنا اختلاف كبير ، مع هذا المجتمع الفرنسي ، الذي أعيشه الآن ، في مجتمعنا العربي ، تصبح المرأة طريدة ، ينثر لها الحب لتصاد ، وفي هذا المجتمع ، الذي أعيشه الآن ، تتعايش الإرادات بدون كذب أو خداع ، فإذا تألفت استمرت بتألفها ، وإن تنافرت افترق الأصدقاء على أن يلتقوا ، كلما سنح الوقت

بصداقة لها ذكريات جميلة ، ولكن المجتمع هنا ليس جنة الله على الأرض ، فيوجد الغث والثمين، ويوجد المفكر والمعقد ، والجاهل والمتبصر ، لكننا يمكن أن نقول إن المجتمع بمجمله ، معافى فتمنيت لوطني عودة عظمته الغابرة ، وقد درسونا في المعهد ، أن سوريا أعطت روما بعض أباطرتها ، ومونتها بالقمح والزيت ، وهل تحتاج الجيوش إلا للقادة والمؤن، لذلك قال بعض المفكرين القدماء :

لولا سوريا ما كانت (روما)

سأعود إليك يا رهوان ، إنسانة جديدة متجددة ، ولكنها ثابتة العواطف ، ومكانك محفوظ في القلب ، لم يدخله غيرك ، وسأطبق ما تعلمت، فلا قيمة لعلم ؛ إن لم يأخذ دوره على مسرح الحياة ، ومن جملة ما تعلمت ، أن القوة والرجولة حلوة جذابة ، ولكنها بدون العقل والحكمة تصبح سيلا مدمرا ، أو بركانا ثائرا وعلمونا أن على السياسي ، أن تكون له قوة الأسد ومراوغة

الثعلب ولكن تحت سقف المبادئ التي يؤمن، وإلا تنقلب الوسيلة غاية ويتشوه الهدف ، سنثري جلساتنا القادمة بالنقاشات وبتفريخ الأفكار فلذلك متعة حقيقية ولا تقل : متعة العقل ، ومماحكة الأفكار وتوليدها ؛ عن متعة الرغبة وحب الحياة ، وعلينا أن نوازن فيما سيأتي من أيام ، بين هذه وتلك

أنت يا رهوان ، مؤهل لتسلم أعظم المسؤوليات ، فلديك الطاقة والعزيمة ، ولكن أيضا عليك لجم القوة الجامحة ، بالعقل الحكيم وتسخير كل ذلك ، لخدمة أهدافك النبيلة ، أحيانا لا تحل الأمور بالقوة وحدها ، بل بالحكمة والانحناء للعاصفة ، بشرط أن لا تتجرد من كرامتك وكبريائك .

اعتقد أنك الآن تقول :

ما لهذه المرأة ! قد غلب عليها الآن طابع الحكمة ، والعقل، والموعظة ، فتأثرت بما تعلمت ولم أعرفها إلا عاطفية متاججة ، ذات رغبات محمومة ؟

معك كل الحق ؛ إن قلت هذا فأنا سابقاً ، لم أكن إلا تلك المرأة المستجيبة للرغبات المحمومة، بفعل نشأتي الأولى ، ولكن على الإنسان أن يتطور ، وأن يجتاز مراحله ليصل إلى الأفضل .

لن أطيل عليك ، سأخبرك بأن دورة المعهد، ستنتهي بعد عشرة أيام ، وسأبقى في باريس عشرة أيام أخرى ، أكمل دورة الفروسية، وأتجول في الريف الفرنسي ، الذي عشقته ، أنت لم تغب عني لحظة ، وفي داخلي عواطف جياشة، لا أريد أن أكتبها على الورق ، أو أعبر عنها، حتى لا يطلع عليها مطلع ، ولكنك

ستلمسها عندما نلتقي قريباً ، أتمنى لك أسعد الأوقات وأنا بانتظار اللقاء عند عودتي للوطن وإليك : على أحر من الجمر .

المخلصة لك : دارين

قرأ الرسالة فذهل ، كان يتوقع عبارات عاطفية محمومة ، أو سرد ذكريات سابقة لليال حارة حمراء ، يلعب فيها الجسد أجمل الأدوار وأقساها ، كان يتوقع منها عبارات مثل : (أموت بحبك ، أو اشتقت لك ، أو جسدي بحاجة إليك ، أو ما شابه ولكنها لم تفعل ، بل قدمت الأفكار التي اكتسبتها ، والمنطلقات التي عثرت عليها، والأفق الذي انفتح لها ، على نور باهر ، ظل يفكر برسالتها محدثا نفسه بصمت :

) إن دارين محقة فيما تقول ، وإنني أملك من الإمكانيات ما يؤهلني ، لتسلم أعلى المناصب ولكن علي أن أتغير ، كما تغيرت دارين ، فأعدائي كثر ، وما فتنوا يكيدون لي كيدا ، وإن إظهار القوة بدون مبرر ؛ قد يستغله الأعداء ، فيحولونه إلى نقطة

ضعف، بعد أن كان نقطة قوة، علي أن أحكم العقل ، قبل استخدام القوة ، التي هي أحيانا وسيلة لتحقيق الهدف ، ومع أن دارين لم تذكر لي العبارات العاطفية اللاهبة ؛ لكنني أعتقد أنها الآن ، تحبني أكثر من أي وقت مضى ، وأن حبها لي قد ملك قلبها ، وإلا لما فكرت بمستقبلي ، وبضرورة تبوني المناصب .

عند عودتها سأحضنها بحنان ، ولطف، ومودة ، ورحمة ولن أعذبها كما كنت أفعل ، فليست طريدة أو نعجة ، ويتوجب علي أن أفيض عليها بالحنان والود والرحمة ، لأنني بفضلها

تغيرت ، وبفضلها سأتغير أكثر ، فبالإرادة ، وتحكيم العقل ، والمنطق تخلصت من الإدمان ، وبمثل ذلك سأتخلص من القوة الهوجاء ، التي اتسمت أحيانا بالحمق ، فالقوة الحقيقية - كما تقول دارين - قوة المنطق مضافا إليها القوة المبرمجة بالعقل الرشيد ، لا بالهيجان الشديد ، بل باستخدامها في وقتها ، وإلا فإن أعدائي .

كما فعل أبو رأفت الدلو - سيهاجمونني بنقاط ضعفي التي تخليت عنها ، وعلى أن أعزز من قوتي بدفاعات أخرى ، إن الوزير يكن لي العداء ، لأنني أفضل منه ، ومرشح لأن انتزع كرسيه ، إنه يخشاني ، ويخاف مني ، ولكنه قد يلجا للغدر أو الافتراء ، ويسعى للدس والنميمة ، والذم والقدح بي أمام رؤسائي ، فعلي أن أتبصر بالأمور أكثر ، وأدقق في أرضية العمل ، وستبقى دارين إلى جانبي ، وربما تصبح زوجتي فيما سيأتي من الأيام ، وأنا بانتظارك يا دارين ، والأيام السعيدة مقبلة ، ستكون الحياة أزهى من القمر ، وأبهى من حقول الأقحوان)

كان الدوام قد أزف على الانتهاء ، عندما دخل الحاجب إلى مكتبه مستاذنا ، ثم قال :

سيدي في غرفة الانتظار ، رجل يدعي أنه أخوك واسمه

جروان ، هل أدخله ؟

- ماذا تنتظر يا يونس ؟ أدخله في الحال .

دخل رجل طويل أسمر ، عيناه سوداوان، تشعان بريقا و ثقة ويرتدي حطة حمراء ، ذات أرضية بيضاء ، مثبتة بعقال أسود ، وثوب أبيض طويل ، فوقه رداء أسود .

ابتسم رهوان لما رأه ، وخرج من وراء طاولته وتقدم منه واحتضنه ، وبادره بالقبل والترحيب ، ثم دعاه إلى الجلوس ، وجلس بقربه، ثم قال :

اهلا باخي جروان ، كانت مفاجأة جميلة منك ، وكنت برما فسررت بمجينك ، ما أخبار المضارب ؟

- اتيت اليوم محملا سيارتي بالجبن والقشطة واللبن ، وسلمت البضاعة لبائع الجملة ، وقلت لأمر وأزورك ، فيما تبقى من وقت .

على الرحب والسعة ، نتغدى الآن ونسهر في الليل ، وتنام عندي وتذهب في صباح الغد .

الغداء وارد ، ولكنني لن أبيت عندك هذه الليلة ، عندي رحمة عمل .

وبعد شرب القهوة ، خرجا إلى مطعم (الناصية الزاهية) ، وهو مطعم فخم وأنيق ، في وسط العاصمة ، يقدم الوجبات العربية والأجنبية، اللذيذة والمشهورة ، وأمر رهوان النادل - بعد أن استقرا على كرسييهما ، تجمعهما طاولة قرب شلال صغير ، يتساقط منه الماء وتحف جانبيه نباتات زينة جميلة - أمره بتجهيز غداء مفتخر ،

قال النادل :

ماذا تحبان أن تشربا ، قبل الأكل أو معه

قال رهوان :

- (كولا) فقط .

ضحك جروان وقال :

- أعرفك لا تتناول طعاماً بدون خمر أحمر ، أو ويسكي أصفر ، فلماذا لا تطلب بيرة على الأقل ؟

- لقد أقلعت نهائيا عن المسكر ! وإذا أردت أنت أن تشرب البيرة ، فسأطلبها لك ، ولكن لا أنصحك بذلك ، فأنت ستقود سيارتك على طريق السفر .

- ولكن أخبرني ، لماذا أقلعت عن المشروب ؟ وأنت المولع به للغاية !

- لهذا قصة طويلة سوف أسردها عليك مستقبلا ، ولكن أخبرني الآن ، عن الربع والعشيرة .

هناك . هم بخير ، ويقرؤونك السلام ، وقد مضى شهر لم تزرنا

سأزوركم قريباً ، في رحلة صيد ، وركوب خيل ، وأرجو أن تعدوا لي خيمة أنيقة واسعة ، تكون إطلالتها على واد ذي زرع مجنبة قليلا عن المضارب .

هل تنوي أن تقيم عندنا أياماً ، وهل ستكون وحدك

ستكون معي مديرة مكتبي التي تعمل في المديرية .

ضحك جروان ! ودارت عيناه في محجريهما ، مرسلة مزيدا من البريق والخبث !

وقال :

هل ستنامان في الخيمة نفسها ؟

- نعم، وماذا يمنع من ذلك ؟

ارتسم مزيد من المرح والابتسام على وجه جروان . ثم قال:

هل نعد فرشة واحدة أم فرشتين ؟

فرشتين ، واجعلوا حاجزا من القماش يقسم الخيمة نصفين، إنها تداوم معي كل اليوم، وأحيانا في الليل ، فلماذا يذهب ظنك إلى السوء ؟

- حاجز من الصعب اقتحامه ؟

- لا تغمر في الكلام ، هي صديقة لا أكثر .

وكل ذلك من أجل العمل ؟

طبعا كل ذلك من أجل العمل ، ولو رغبت بالزواج منها

لفعلت !

صداقة بريئة ! هذا الكلام يصبح نكته في مجتمعنا .

- صدق أو لا تصدق ! هذا هو الواقع .

وسأل رهوان أخاه :

كم رأساً من الخيل عندنا ؟

لدينا الكثير ، ولكن لماذا تسأل ؟

أريد أن تركب الخيل ، ونصطاد الثعالب والذئاب .

ومن معك ؟

- طبعاً أنا ومديرة مكتبي ، دارين

ضحك باستغراب ودهشة ، ثم قال :

- بنت مدينة وتركب الخيل ! وتصطاد الثعالب والذئاب ! هذا من علامات الساعة .

ضحك رهوان من قلبه لدرجة القهقهة ثم أجابه :

- يا رجل ، المرأة في الغرب تقود الطائرة، وتهبط بالمظلة، وبنات إسرائيل يحاربننا بالرشاشات وصنوف الأسلحة الأخرى ، وتستكثر على مديرة مكتبي ، صيد الثعالب !

ولكن أين تعلمت ركوب ، الخيل واستخدام السلاح ؟

- أعتقد أنك شاهدتها معي مرة ، وكانت تحمل بندقية ،

علمتها على استخدامها ، ورمت بها مرارا ، أما الفروسية وركوب

الخيل فقد تعلمتها في باريس .

- في باريس نفسها !؟ ومن الذي أخذها إلى هناك ؟ أنت

تقول : إنها مديرة مكتبك ، وتداوم معك صباح مساء .

هذا أمر يطول شرحه ، سأحدثك به فيما بعد .

كان الطعام قد وصل ، وقد حمله ثلاثة من عمال المطعم ، وضاعت رائحة الطعام الذكي في أنفيهما ، وتهيأت المعدة ، لاستقبال الطعام ، فأفرزت العصائر ، وامتلأت الطاولة بصحون المقبلات ، واللحم المطبوخ ، والكباب واللحم المشوي ، والدجاج المحمر ، والسمك المشوي وصنوف أخرى مما لذ وطاب .

قال جروان :

- هل سيحضر أحد فيتغدى معنا ؟ هذا الطعام يكفي عشرة أشخاص !

لن يحضر أحد ، إنه أقل من الواجب ، فأنت يا أخي عزيز وكبير المقام .

-ثم بشيء من الدعابة فأنت تذبح لنا الخراف ، عندما نزوركم أنا ودارين .

أحببت . ابشر ، تحضرون ويحضر واجبكم ، اجلب معك من

وسأله رهوان عن أحوال الأغنام ، والموسم والمواليد ، وعن حالة الأمطار والأعشاب ، وما المشاكل التي يعانون ؟

فأجاب جروان

الأمطار هذا العام لا بأس بها ، وقد توالدت الأغنام والموسم يبشر بالخير، المشكلة في الذئاب والثعالب ، هذه الأيام ، فقد تكاثرت بشكل مفاجئ ! وصارت تهاجم المضارب ليلا ، وتقتل الأغنام وهي هاجعة ، حتى إنها هاجمت راعيا كان يحرسها فافترسته !

- الهذه الدرجة وصلت بها الشراسة ؟!

في أول العام هطل ثلج كثير ، واختفت الحيوانات الصغيرة ، مثل الأرانب والسنانير ، وجاعت الذئاب ، فتجرات وهاجمت المضارب ، و المشكلة الأعظم أن الذئب لا يفترس شاة واحدة ، ليسد رمقه وجوعه ، بل يفتك أحيانا بالقطيع بكامله .

- لا تخشى من هذا الأمر ، سأصطاد لكم كل الذئاب ،

وأكومها في ساحة المضارب ، أما الثعالب فسأتركها لدارين .

ضحك جروان من كلامه ، وقال :

شوقتني كثيرا لرؤية دارين هذه ، التي ما تقتا تذكرها ، في ثنايا الأحاديث .

في الحقيقة ، غابت ستة أشهر للقيام بدورة في معهد بـ) باريس) ، وستصل إلى دمشق بعد أسبوع ، لهذا أتذكرها دوما ..

إنهن خائنات العهود ، يملن مع النعماء حيث تميل ، أظن أنها ليست بأفضل من نيوف بنت ضبعان .

اليست هذه التي كنت تحبها ؟ وتنوي أن تتزوجها ؟!

نعم صرفت النظر عني ، وتزوجت من فليحان العبيدات .

لماذا فعلت ذلك ؟ وأنت أفضل شباب المضارب !

ألم أقل لك أنهن ، يملن مع الغني الموسر.

اف ، أعرف أن فليحان فقير دميم .

كان فقيرا ، لكنه الآن من أصحاب الملايين ، وتربص عند خيمته أكثر من ثلاث سيارات فخمة .

- من أين هبطت عليه الثروة فجأة ؟

والخليج. اشتغل بتهريب غنم العواس ، عبر الحدود إلى الأردن

وأين حرس البادية ؟ هل هم نائمون ؟

بعضهم تعاون معه لقاء حفنة من المال، واستغل أحيانا انشغال الآخرين ، بتحسين ظروفهم وإهمالهم لعملهم .

- هل وصل الفساد للبادية أيضا ؟ لو صدروا العلم عن طريق الدولة ، لاستفادت الخزينة بمورد عظيم ، ولصدروا وهم آمنون ، حتى ولو كانت الأرباح أقل .

المشكلة : أن الدولة تسمح بتصدير جزء من الثروة الحيوانية ، حتى لا تلتهب أسعار اللحوم، أو تتأثر الثروة الحيوانية ، فينقص عددها، فيلجؤون إلى التهريب ، لأنه أيضا يكسر إجراءات الروتين في التصدير .

- ولكنه يؤثر على ميزانية الدولة ، ويحرمها من الموارد ،

لتدخل في جيب فليحان وأمثاله ، فيعيثون في الأرض فسادا .

هذه حال الدنيا من عهد آدم .

لا أظن الأمر كذلك ، ولكن عندما يضرب الفساد النفوس ، تتعلم الأخلاق ، وتنام الضمائر ، وكان على الرقيب والحسيب ألا يغفل مطلقا ...

انتهيا من الطعام وشبعا ، وجيء بالفاكهة، ثم أشعل رهوان الفافة تبغه ، وضيف أخاه بلفافة أيضاً ، وأحضر النادل القهوة

قال جروان :

استأذنك يا أخي بالسفر لأن علي أن أصل المضارب قبل

الغروب . قلت لي أن سيارتك معك أليس كذلك ؟

في الحقيقة معي (الشاحنة) وهي قوية وسريعة ، لكن المسافة أيضاً بعيدة ، وأنا أحمل مبالغ كبيرة من ثمن المنتجات التي بعتها . ولا يأمن الإنسان الطريق ، فالحذر واجب .

على باب المطعم تعانقا وودعه جروان مغادرا دمشق .

أما رهوان فقد احتار ، هل يذهب إلى بيته ، أم يذهب إلى بيتهما في العدوي ، لقد مرت فترة طويلة لم يذهب إلى هناك ، ربما ذهب مرة أو مرتين منذ سفرها ، إنه دوما ينام في بيته القديم قرب المديرية ، لكن الآن ينتابه شوق عظيم للذهاب إلى العدوي ، للانغماس بذكريات المكان العزيزة ، كم الشوق مبرح ، والغياب قاهر لاهب، وهل تعود تلك المسرات الرائعة الحميمية اللاهبة ، إلى هذا البيت من جديد .

وصل العدوي ، وعبر المدخل ، ثم صعد وفتح الباب ودخل كانت النوافذ مغلقة ، والستائر مسدلة ، ورغم ضوء النهار ؛ إلا أن

البيت كان قليل الإضاءة ، شحيح النور ، واستطاع أن يلمس . نظافته رغم الغبش ، ولم يبادر لفتح النوافذ ، فالعتمة ، أدعى للولوج في بل، وغاص في الذكريات ، ذكريات مرت عليها احداث ، غيرت في هيكلة نفسه ، ونقلت في سوية تفكيره، بنات من دكان الحلاق أبو حسبو ، والسهرة الفريدة في بيت زوجها ، وسيرة المطعم التي أعقبت ذلك ، ثم خطفها ليلا ورحلة الغرام بعد طلاقها من سعيد ، حتى مغادرتها إلى فرنسا.

مضت أوقات غرق فيها بالخمر والملذات، كأنها الأحلام ، وبينما كان هو يغرق في الخمر واللذة والنشوة ، كان فليحان العبيدات ، يهرب قطعان الماشية عبر الحدود ، وكان أيضاً أبو رأفت الدلو ، يعيث فسادا ، ويجمع الثروات، ويتقاضى العمولات مدخلا الرز المسوس، والشاي المعفن ، إلى معدة المواطن الصابر الخانع ، وتنتقل الجميلات إليهما كما تنتقل العصافير من غصن إلى غصن ، مرحى لك يا نيوف بنت ضبعان ، لقد

فهمت المرحلة ، واكتشفت الزمن الرديء ، فركبت الموج ، وأخذت بزمام فليحان العبيدات ، كأفضل مطية ، وربما كان لأبي رأفت الدلو عشيقات ، بل الأكيد أن له عشيقات ، رغم أن زوجته هانم السلحدار ، سليلة تلك الأسر ، التي اعتبرت نفسها

لردحطويل من الزمن ، أنها من أكابر دمشق ، وأن لها الحق أن تبقى على السدة ، ما بقي الدهر ، حاكمة للعباد متحكمة برقابهم ، وأن تستثمر مزارعها ، وتخضع عبيدها في إقطاعياتها الممنوحة من السلطان، ولكن الدهر دولاب ، ربما أفل نجم آل السلحدار فباعوا أرضهم واشتروا بها خمرا ونساء ، في زمن الرصاص والقنابل والدم، أرضهم التي جاءت بدون تعب ، فذهبت بدون أدنى جهد ،

كانت هبة من حاكم غاز ، كانوا له عملاء وخدم ، هل هذا عصر نيوف الضبعان وفليحان العبيدات ؟ أم هو عصر أبي رافت الدلو؟ الذي جمع الثروات ، عندما جلب الرز المسوس والشاي المعفن ؟! وهل تؤول المقاليد إلى من هو أجدر ؟ إلى من عمل بصدق ، وأمن بصدق ، مثل رهوان الأزدي ، أم هل يحين الوقت ؟ فتعود سلطة ال سلحدار مجددا وتعتلي السدة التي نزلت عنها ؟

قال في نفسه) أظن أن التاريخ لا يرجع إلى الوراء) لن بيق الهائم السلحدار من سلطة الآن ؛ إلا مراقبة سلوك رأفت الدلو، تزجره وتلجمه ، وتراقب رفة عينيه ، إن في الوزارة ، أو خارجها ، لكن أبا رأفت ، كان أشطر منها وأذكى ، فهو لا يفتا أن بعد عينيه ، إلى ما متع به غيره ، فيصطاد ويجتاح ويظهر أمام الملأ على منبر الخطابة ، ملائكة نزلت من السماء تشرع وتهدي خطاة الأرض ، حقا إن الناس تختبئ بثيابها ، الثياب تخبئ النفوس، وتموه الضمائر والنوايا ، فيختلط الحابل بالنابل ، الثياب التي خدعت نبال م دارين ، فعشقت القطيفة ، وأطلقتها على أحط طبقة ، وأشدها انحلالا ، أما هو الذي أخلص لحزبه ولوطنه ، وراهما وجهين لعملة واحدة ، وأبقى يديه نظيفتين ، ولم يختبئ بثيابه، أو يستثمر منبراً من المنابر ، ولم يفهم السياسة أو يقتنع بـ) الميكا فيلية (معتمدا على قوته ، كما يعتمد الذئب على مخلبه ، طعنه الفاسدون وهجوه، وقمط حقه من حزبه نفسه ، وربح أبو رأفت الدلو ، الذي لم يترك مغنمة ولا فرصة ، إلا أتى عليها ، كما يفعل الجراد ، وها هو أخيرا قد عاد للوزارة من الشباك ، بعد أن أخرج من الباب ، وكان مصرا على الاحتفاظ بالدجاجة، التي تبيض له في كل يوم بيضة ذهبية .

وفجأة تذكر رفيقه الطيب المخلص، المحامي ملاذ إسبر ، الذي تفرغ في قيادة الحزب، تاركا مكتبه للمساء ، ليعود إليه ويلتقي بأصدقائه ، ورفاقه المخلصين ، ويشرب الويسكي بهدوء وبعيدا عن الأنظار، مداريا احزانه، هاربا من المواجهة . مكتفيا بالحديث مع زملاء خلص .

اتصل بملاذ وأخذ منه موعداً في الثامنة .

عائقه ملاذ وقبله ودعاه للجلوس ، وجلسا متقابلين

قال رهوان :

- ما آخر الأخبار ؟

- لن أقول لك شيئا ، حتى أعد كأساً من الويسكي .

- لقد أقلعت عن شربه ، صب لنفسك كاسا و اعفني من الشراب .

استغرب رفيقه ملاذ وتعجب ! ثم قال :

هل ما تقوله صحيح ؟

- نعم صحيح .

- إذن اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وما فعلته من علاماتها ، ما زالت المعجزات تحدث في الدنيا ، وكنت أظن أن زمن المعجزات قد ولى.

بل حدثت المعجزة !

كيف حدثت ؟

وجدت أننا بينما نحن نسكر ونلهو ، تقرض الفئران خشب السفينة ، ونحن في غفلة ، وإذا استمر الفساد بقرض السفينة ،

فإننا ستغرق جميعاً ، كنت ومازلت أهوى صيد الذئاب ، فى البراري ، فقد كانت تأكل أغنامنا في مضاربنا، واليوم بالذات زارني أخي جروان ، وقال : إن الذئاب في البادية ، قد تكاثرت بشكل عجيب ، أما أنا فأقول ، ما أرحم تلك الذئاب ، التي تفتك

بالغنم أمام ذئاب الفساد ، التي تفتك في سفينة الوطن . بالمناسبة الشبهات تحوم حول أبو رأفت الدلو ، والقيادة

تتربص الدوائر .

سينفد منها كما نفد من فخاخ كثيرة قبلها .

هذه المرة أظن أنها نهايته .

لماذا ؟

- اشترك سائقه مع بعض عناصر الجمارك؛ في تهريب مخدرات وأسلحة ، قيل : إن العملية لحساب أبي رافت ، وبتمويل وتخطيط منه كشفت القضية ، فحملها لأحد العناصر ، وتكفل هو بمصاريف بيته ، مع مبالغ كبيرة ، ولكن القيادة أيضاً كشفت هذا الأمر ، وستظهر الحقيقة .

أمواله تساعده ، في التخلص من المسؤولية .

رائحته تزكم الأنوف ، ولن يجد من يساعده ، لأن من

سيساعده ، الآن سيسقط معه .

أصبح الفساد كالسرطان، فأين العلاج ؟

الأنكى من ذلك ، أن بعض الانتهازيين يتسربون للحزب

ويتزايد عددهم .

- زاد عدد الجرذان ، وكثر القارضون وربما سوس

الخشب.

هل ستنجو السفينة ، وتصل لشاطئ الأمان ؟

ما زال الشاطئ بعيدا ، والمرفا أبعد ، ولا تلوح منارة في

- خذ كاسا لتريح أعصابك .

- قد لا ينفعنا حتى الأفيون في المستقبل فلنبحث عن الأقوى.١٦٦

10

في مكتبه ، عصفت به موجة من التساؤلات والذكريات ، ومراجعة الأفكار ، لقد اخترعوا جهازا لكشف الكذب ، لكنهم لم يستطيعوا اختراع جهار (رائز) ، يقيس مقدار العواطف ، في قلوب المحبين ، ولو اخترعوا هذا (الرائز) كان جروان ، قد عرف مقدار حب هنود الضبعان له ! وكان اكتشف تغيرها ، بانحسار منسوب حبه ، ثم جفافه في اللحظات الأخيرة ، وتقلبه باتجاه فليحان وهل القلب الذي سمي كذلك لتقلبه ينطبق على كل النساء ؟ كما هو على كل الرجال ؟ وهل السيارات الفارهة ، والثروات المكدسة ، والمناصب الرفيعة ، من أهم عوامل تقلب القلوب وتغيرها ؟

وتساءل أيضا:

هل دارين قد أحبته لمنصبه ، أم للوظيفة التي تلقتها هيئة لينة، وعلى طبق من ذهب؟ وهو نفسه الذي تغير بشكل ملموس ، وتخلى عن عادات كان يعتبرها جزءا من روحه . هل كان سوى الحب ، الذي فعل فيه كل ذلك فغيره ؟ وإذا لم يكن الحب صادقا ومتبادلا ، بين اثنين هل يزدهر ويقوى في كل يوم ، ليصبحأجمل ودارين نفسها ، التي تغيرت من النقيض إلى النقيض ، ألم يغيرها الحب وحده ؟ وهو الذي تغير معها أيضاً ، تاركا الكثير مما تعلق به من عادات شرسة ، أو خمر اعتبره مكملا للرجولة ، هل كان كل ذلك إلا رائزا لحب قوي مكتمل ، شمل الروح والجسد في وقت معا ؟ هي ما تفتا تنتقد ماضيها بشكل لاذع ، وتلوم أمها أحيانا ، وتمنت يوما ، أن تكون قد عرفت رهوان قبلا، أليس هذا

زائزاً من روائز الحب ؟ أم أن دارين من الإتقان في التمثيل . الدرجة يصعب كشفها؟ فلم يستطع التفريق بين الحقيقة والوهم !

وهل تتقى المكر بدقة وبراعة ، فوقع في شركها متوهما الحب مخدوعا اخدعته عندما أسلمت له الجسد ، دون الروح فسقط مزهوا ، وهي تضحك الآن من سرعة سقوطه ، وخفته بل وسذاجته ! هل يمكن أن يكون هذا كله قد حدث؟

فكر طويلا وتأمل مليا .

ثم قال في نفسه :

اعتقد أن هذه الفرضية ، في غير مكانها ، فالمرء يحس بصدق الكلمات ، من وقعها في النفس ، والكلمة التي تخرج من القلب ستصل القلب ، بدفئها ونبضها الحار . وقد كانت كلمات دارين دافئة ، نابضة ، حارة معبرة ، فلا تشك بصدقها بعد الآن پارهوان ،

كانت دارين في الوقت ذاته ، تفكر بلحظة لقائه فبعد يومين ستهبط المطار ، في دمشق، كيف ستكون حرارة اللقاء ، وروعة العودة ، ولقاء الحبيب .

حزمت حقائبها ، ووضعت فيها الهدايا الثمينة ، ولم يبق إلا أن تخبره بموعد الوصول .

ورن عنده الهاتف وجاء صوتها جميلا ناعماً ، كأغنية فيروزية تهز الروح والقلب ، ولا تدري من أين تهزك ، أو كيف تأخذك ؟ !

صباح الخير عزيزي رهوان ، اعتقدت أنك في المكتب ، فاتصلت بك حيث خمنت ، سأصل دمشق بعد غد الخميس ، في العاشرة صباحاً .

صباح الخير يا دارين ، منذ ثوان كنت معي ، أفكر بلقائك، طبعاً سأستقبلك ، فلا تدعي أحدا من أهلك ، يشاركني تلك اللحظة الفريدة في لذتها ، الغنية في سعادتها وسرورها .

- حاولت أمي وأخي ، إقناعي بضرورة حضورهما للمطار، ولكنني رفضت ، وقلت : إن المديرية ، سترسل لي أحدهم ، يوصلني من المطار إلى البيت .

حسنا فعلت .

- لقد جلبت بعض الهدايا ، والحقائب مليئة على سيارتك تتسع لها .

سأحضر معي شاحنة كبيرة .

ضحكت بغنج ودلال . وقالت :

- لا ليست لهذه الدرجة !

سأكون في العاشرة من صباح الخميس في المطار .

لم يشأ - وهو الذي يتكلم من العمل ، ويعرف أن الهواتف مراقبة - أن يتوسع في الحديث الحميمي معها ، فاقتصر على أن تكون وكأنها بين موظف ومديره . ولم يكن يعلم أن هواتف بيته أيضا مراقبة ، وأن أذن أبي رأفت الدلو وعيونه ، تصل إلى كل مكان .

أما هي فقد استعدت للعودة منذ أسبوع ، اشترت الهدايا ولم تنس أحدا ، وخصته بأغلاها وأثمنها ، لوحات تذكارية لرسامين فرنسيين ، لوحات معدنية لبعض معالم باريس ، عدد من ربطات

العنق ، الأنيقة الثمينة ، والقمصان الغالية، وبعض الألبسة الرسمية الفاخرة ، وعدد من زجاجات العطر الفرنسي المميز .

اليوم ستودع سيمون ولوران ، وسيتفقا على دوام المراسلة والمحادثة ، ستحمل معها شهادتي : الفروسية ، وشهادة التخرج من المعهد العالي في علب أنيقة ، مع بعض الميداليات التي أهديت إليها من النادي الفرنسي للفروسية .

ستكون آخر ليلة لها في باريس قلقة قلقا إيجابيا جميلا ، سببه لقاء رهوان والعودة للوطن، لا يعرف الإنسان قيمة الوطن ، ومقدار حبه له إلا عندما يغادره للغربة ، فليس ثمة أقسى من وحشتها ، رغم ما يكتنف السفر البعيد من مغريات .

حان موعد الوداع يا باريس (سأتملى في آخر يوم لي فيها ، من معالمها التي أحببت ، والتي أصبحت - ذكرياتها الجميلة . جزءا من ذاكرتي ، التي لن تمحى ، وأتمنى العودة يوما)

طافت الحدائق ، وجلست على مقاعدها، تتأمل النير والعصافير ، التي كانت تحط قرب مقعدها ، أو حتى على راحة كفها ، تلتقط بعض فتات وضعتها للطيور لتكون أقرب ما يمكن منها، فتلامس كفها وتنظر بعينيها ، لماذا عندنا الطيور والعصافير تخاف من الإنسان ؟ وعندهم الطيور تتألف مع الإنسان ؟ لماذا يغلف الخوف حياتنا ، وطيورنا وغاباتنا ، وجبالنا وإنسائنا وعندهم ينتقي الخوف من حياتهم كلها ! لم تعثر على إجابة | بل لم ترد أن تتعب ذهنها في البحث عن الإجابة .

أقلعت الطائرة من مطار باريس ، ألقت من النافذة آخر نظرة وداع ، المدينة الجميلة ، التي بقيت في ربوعها أكثر من ستة أشهر، تعلمت من خلالها الكثير ، ربما أكثر مما تعلمته من حياتها السابقة كلها .

بعد ثلاث ساعات .... قالت المضيفة :

اربطوا الأحزمة استعدادا للهبوط ، لقد أوشكنا على الوصول إلى مطار دمشق .

قفز قلبها من مكانه ، وخفق كجناحي طائر ، ألقت نظرة من النافذة ، فلاحت لها دمشق ، يلفها ضباب بلون الرصاص الرمادي الساعة حوالي العاشرة إلا عشرين دقيقة ، وها هي الطائرة تستعد للهبوط .

كان عند بوابة الوصول ، ينتظرها بلهفة ، انتهت من إجراءات ، فحص الحقائب ودخلت البوابة ، فلمحها من بعيد ، كانت قصة شعرها الفرنسية ، قد عدلت من ملامحها فبدت أكثر جمالاً ، وأكثر رشاقة لأنها أيضا فقدت بعض وزنها ، إنها الآن بوزن عارضة أزياء نحيلة ولكنها جد جميلة .

لمحته واقفاً بقامته الشامخة ، كشجرة سنديان بانتظارها ، ليظللها ويغمرها بالعبق والفرح والنشوة ... احتضنها ؛ فألقت برأسها على كتفيه ، فانتعش برائحة عطر الجسد ، الذي افتقده لشهور ، فاهتزت روحه طربا ، واستيقظت من سبات عميق ، وانتفض جسده كنمر يتحفز للوثوب والانطلاق ، وشعرت هي

أيضا بروعة اللقاء ، وحميمية الالتصاق ، فاعترتها نشوة عبقة اهتزت لها الروح والجسد ... قالت :

- اشتقت لك حبيبي لدرجة الجنون .

- وأنا تقت لك ، كالأرض العطشى من دهور للمطر ، أنت

الأغلى من كل شيء .

بدونك لا معنى لطعم الحياة .

تمنى لو يقبلها ، أو يلتهم شفتيها ، التي طالما حلم بها خلال الشهور الستة الماضية ، ولكن العادات هنا لا تسمح ، ولابد من الخلوة ، ليعبر الجسد ، عما عجز اللسان عن التعبير عنه .

كان عامل خدمة المطار ، قد اتجه إلى حقائبها ، ووضعها في عربة خفيفة ، ورافقه رهوان إلى السيارة الرابضة ، في الموقف القريب من باب المطار .

فتح باب السيارة وأجلسها في مقعدها ، ليعود ويجلس خلف المقود ، متحركا بالسيارة خارج حرم المطار ، مستلما الطريق العام المؤدي لدمشق ، كانت تجلس على بعد سنتيمترات قريبة منه، ووضع يده على فخذها ، فاحمر وجهها خفرا ... فقال :

ستة أشهر حسبتها ، سنوات طويلة لا تكاد تنقضي .

- كنت أعد الدقائق والثواني ، كي أعود إلى حضنك ، فعندك وحدك عرفت قسوة الحنان بل حنان القسوة .

كانت الأرض على جانبي الطريق ، قد تفجرت زهرا ، وعصافير ، وخضرة ، وانبثقت على التخوم ، أشجار الحور واللوز

و الدراق، وضحكت السماء وعاد الصفاء ، إنه الحب ، الذي عاد منتشيا من هوا انيقا جميلا صافيا كنبع جبلى متدفق

قالت :

كيف حال بيتنا في العدوي ؟ هل زارته إحداهن ؟

إنه مثل قلبي ، لم يدخله أحد غيرك ، إنه الآن على أحر من الجمر بانتظارنا .

كان رهوان منذ يومين قد أرسل ورشة التنظيف إلى بيتهما ، فأزالوا الغبار ، ونظفوا الستائر والأبواب والنوافذ والأرض والزوايا وكل أرجاء المنزل ، فغدا لامعاً نظيفاً تفوح منه رائحة زكية ، وملأ المطبخ بالفواكه والطعام بصنوفه وأعد التموين اللازم بأنواعه .

بعد ربع ساعة وصلت السيارة للعدوي ، وحمل الحقائب وساعدته ببعضها . ترجلا منها ،

فتح الباب ، وما كاد يدخل الحقائب ، ويغلق الباب حتى ارتمى عليها ، ضاماً جسدها إلى صدره بقوة فرفعت وجهها ، واشتهي الكرز ، فالتهم شفتيها، وأذنيها ، ورقبتها ، فتأوهت وذابت بين يديه ، ولم يجد بدا من إلقائها على الأريكة .

قالت وقد غلبها الانفعال اللذيذ من الشهوة :

- دعني أخلع ثيابي .

- لا وقت لذلك !

وأخذها على الأريكة كما يفعل في كل مرة ، و كانت هي عطشى ، وممتلئة رغبة ، فوجد فيها عطاء كاملا ، بالروح قبل الجسد ، هدأت العواصف ، فقاما وأصلح كل منهما شأنه ..

قال رهوان :

اعتقد أن الجنون قد ألم بنا .

- الحب لا يكون ألقا ؛ إن لم يكتنفه الجنون.

وذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة قائلة :

لقد اشتقت للقهوة الدمشقية ، فليس في العالم كله ألد منها.

سأخذ حماماً سريعاً ساخناً ، بينما تجهز قهوتك

خلع ملابسه ، ودخل الحمام الساخن ثم ارتدى سراويل أبيض، و مجولا قطنيا زاهيا، واتجه إلى غرفة الجلوس ، حيث كانت القهوة قد أعدت لوقتها ، فصبت دارين فنجانين وجلست إلى جانبه على الأريكة ، بعد أن خلعت بعض ثيابها، فبقيت في رداء قصير ، وسبحة مفتوحة الصدر رائعة الألوان .

قالت :

ها قد عدنا لأيامنا الجميلة ، التي تقنا إليها طويلا

- احترت أثناء غيابك ، كيف أمضي أوقاتي.

- كيف أمضيتها ؟

في زيارة أصدقاء قدامى ، ورفاق مخلصين ، وفي أيام العطل ، زرت أهلي في المضارب ، وأوصيتهم بأن ينصبوا لنا

خيمة أنيقة متجنبة ، ذات إطلالة على الفضاء الرحب ، لنقضي معا عطلة نهاية الأسبوع ، نركب الخيل ونصطاد الذئاب والثعالب.

- كم أنا مشتاقة لركوب الخيل في البراري الشاسعة !

احضرت دارين الهدايا من الحقيبة، فشكرها على هداياها القيمة والجميلة ، والتصق بها ثم ضمها إليه ، تناول رقبتها لائما ، وصاعدا إلى شفاه استعادت نضارتها ، ثم سحبها إلى غرفة النوم .

فقالت :

ارجوك لا تستخدم العنف كثيرا .

- لن أستخدمه مطلقاً ، ولقد تركت تلك العادة ، كما تركت الخمر، لن أعود إلى تلك النزوات ، فالحب يحتاج الرقة و الحنان لا العنفوان .

- كم تغيرت يا رهوان ، فتخليت عن الخمر، وتعنيف الحبيب و تعذيبه ، فماذا تشعر الآن ؟ وهل تحضرك النشوة كاملة؟

- نعم تغيرت ، ورأيت أن الحب الحقيقي ، هو الرحمة والمودة والحنان

يعجبني هذا التطور فيك ، يا لروعتك !

وتابعت :

علي تجهيز نفسي والذهاب لبيت أمي ، ألا تخرج معي ،

وتمكث قليلا

- طبعا سأفعل هذا

لبست ثيابها وأعادت ترتيب حقيبتها، وكذلك فعل ، ثم خرجا من البيت ، كان يود لو تناولا الغداء معاً ، لكنها قالت له : إنها قد

تناولت طعاما في الطائرة ، ولن تستطيع تناول أي طعام قبل ساعات ، ولذلك نزل عند رغبتها ، وذهبا إلى الشعلان إلى بيت أمها .

وعندما صعدا وقرعا الباب ، كانت الأم خلف الباب وكأنها تتوقع قدومها في هذه اللحظات، فارتمت عليها وعانقتها مقبلة وجنتيها .

بكت الأم قائلة :

طال غيابك عني يا دارين ، فلم يعد لي أحد في الدنيا غيرك .

وأنا افتقدتك أيضا ، لكن أخي عزيز بمقام ابنك أيضا ، أما كان يزوركم ؟

- كان يزورنا باستمرار ويسأل عن شؤوننا ولم يقصر إطلاقا ، خاصة في الأمور المالية ، لكن والفضل الأكبر لرهوان فكان يوصل لنا راتبك في أول كل شهر.

وكانت قد سلمت على رهوان بحرارة، ودعته للجلوس ، بعد أن فرغت من عناق ابنتها ، وتابعت :

إن رهوان ، كان يأتي في أول كل شهر، يحمل راتبك كاملا ، ويسهر في بيتنا قليلا ويذهب، إنه صاحب واجب ، ونادر وفاؤه .

وفي هذه اللحظة جاءت الجدة ، وقد استيقظت للتو على سماع الأصوات ، فأتت تتوكأ على عصاها ، وسلمت على دارين ورهوان . ودار حديث طويل عن ذكرياتها في باريس ، ورهوان يتأملها بعينيه ، ولا يكاد يشبع منها ، يتأمل الجمال ، والقوام ويتمنى

ايضاً لو يأخذها مجددا ، فى هذا البيت بغرفتها ، للمرة الثالثة ،

ولكن ليس إلى ذلك من سبيل !

قام واعتذر بمواعيد ، وقال الدارين :

ساراك في المديرية من أجل إعداد تقرير عن مهمتك ، والأعمال التي أنجزتها ، والدراسات التي قمت بها ، لتتقدمي به

كان هذا الكلام ، أمام أمها وجدتها ، لتسويغ خروجها يوم السبت ، وحتى لا تطلب أمها إجازة تحجبها بها عنه ، ليوم أو للوزارة. يومين .

حدثت أمها وجدتها ، عن حياتها التي قضتها في باريس ، اذكرت لهما معالمها وحدائقها وأوابدها ، وأخبرتهما عن صداقات عقدتها ، وعن معارف اكتسبتها ، ولما حدثتهما عن ولعها بالخيول و إتقانها للركوب تعجبتا ! فقالت الأم :

- مالك ولهذه اللعبة ، إنها رياضة رجالية، تفقد الفتاة أنوثتها .

- لا أعتقد أن هذا الأمر صائباً ، إنها تمدك بثقة كبيرة ، وتحرك - مثل السباحة - كل عضو في جسدك .

- وهل هجرت الرقص ، وتركت مقاصف باريس ،

التعاشري الخيول !

ارتدت مع أصدقائي بعض المقاصف ، للاطلاع والمعرفة فقط ، لا للانغماس أو التهتك ، فأنا لم أعد أحب تلك الأماكن ، ولقد تحولت إلى إنسانة عملية ، أه ! لو تعرفين كم استفدت من تلك الدورة ، حيث يتلازم الدرس النظري ، مع التطبيق العملي ، وكيف على المتدرب ، أن يقود مديره ، فيذكره ليس فقط بالمواعيد

الهامة، أو بأجندة عمله ، وإنما بما يتوجب عليه من اتخاذ قرارات ، تجعل العمل المؤسساتي متكاملا ، ومتناغماً بشكل (هارموني) دقيق ، إضافة إلى الاطلاع السياسي العميق ، وتلازم ذلك مع الاقتصاد ، ولم أجد ذلك فيما درست سابقا .

قالت الجدة :

وفقك الله يا ابنتي ، إن المسؤولية ترافقنا في كل مراحل حياتنا ، وإن الجدية والسعي وراء الهدف ، يكون من بداية وعي الوليد ، وبإشراف الأولياء ، ولم تكن حياتك ، وحياة المرحوم أخيك جميل كذلك ، فوجود الأب ضرورة للمرجعية الصالحة ، ولحسن مسيرة حياة الأبناء .

قالت دارين :

- المهم الآن ، أنني اكتشفت نفسي ، وعرفتها ، وحددت إمكانياتي وسبرتها ، ووضعت لنفسي هدفاً ، أسير باتجاهه ، وقد قيض الله لي رهوان فساعدني ، وكان خير مرشد ، وأنا أعمل بكل طاقاتي ، لأنني بالعمل أحقق ذاتي ، وأنفع أهلي ، وأبناء بلدي .

قالت الأم :

- عليك الآن أن ترتاحي قليلا ، وتنامي بعض الوقت ، فربما جاء أخوك عزيز، وأمه وزوجه لزيارتنا مساء .

فعلا أنا بحاجة للنوم ، والاستراحة سأذهب .

ودعهم رهوان وذهب على أمل الاتصال .

مضى أسبوع على عودتها ، والتقت خلاله مرات برهوان في بيتهما ، فقال لها يوماً :

غدا الخميس ، سنذهب معاً إلى مضاربنا في البادية ، النقضي عطلة نهاية الأسبوع ، وننام هناك ليلة ، في الخيمة التي اعدوها لنا ، فأخبري والدتك بغيابك تلك الليلة ، واخترعي العذر الذي تشائين ، والتسويغ الذي تريدين ، ستكون رحلتنا من أجل صيد الذئاب ، وركوب الخيل ، وقد جهز لنا أخي جروان ، خيمة متطرفة ، وأعد الخيول المناسبة .

هل سنذهب بسيارتك ؟

سيجهزون لنا سيارة ، ذات دفع رباعي هي السيارة المعدة للتحرك في الصحاري، والأراضي المتموجة ، وبها أيضاً ستلاحق الذئاب .

بعد ظهر الخميس ، كان كل شيء جاهزا في السيارة : الطعام ، والبنادق ، وألبسة الصيد، وأدوات السفر اللازمة لحياة الصحراء ، والألبسة التي تلبس في الصحاري ، والنظارات الخاصة ، اتقاء الرمال إذا هبت العواصف الرملية ، وكل ما يلزم. تحركت السيارة في الثانية ظهرا ، على الطريق المؤدي إلى شرق دمشق ، باتجاه بلدة (الضمير (كانت طريقاً جرداء ، إلا من بعض الأشجار والمراعي ، ولاح من بعيد راما تجمعت فيه مياه الأمطار ، كأنه بحيرة حقيقية كبيرة ، توقف رهوان عند الرام ، وأخرج حافظة القهوة الساخنة ، وصب فنجانين ، وجلسا على صخرة ، يتأملان المياه المتغضنة ، كموج خفيف ، بفعل رياح بدأت تهب من الغرب ، سحرت بالمنظر الطلق ، المنفتح على أفق

واسع ، ولاحظ رهوان رفوفاً من القطا ، تحوم فوق الرام لتحط على حوافه ، و شطانه لتشرب .

قال لها :

هل تتقنين صيد الطيور في كبد السماء ؟

- لا .. ولا حتى على الأرض !

إذن ساريك كيف يكون صيد الطيور وهي في الجو .

أخرج بندقية صيد ، ذات ماسورتين يسمونها (الجفت) ، ولقمها بطلقتين ، وتقدم من الرام وانتظر قليلا ، هجم رف من القطا باتجاهه ، فصوّب رهوان النار عليه ، ودوت في الأفق طلقتين ، سبقهما وميض ناري من الفوهتين ، وسمعت أصداء الطلقتين ، من الأفق البعيد ، تهاوت بضعة طيور من الجو ، تسقط بشكل دوراني ، ثم تخبط الأرض ... فقد أصيبت ، وارتمى معظمها قرب رهوان ، فالتقطها ووضعها في الجعبة ، ثم قدمها لدارين .

وقال :

تأملي هذه هي طيور القطا .

- هي طيور جميلة ، منذ لحظات كانت تطير ، متمتعة

بحريتها في الأجواء ، وها هي الآن ترقد بلا حراك ، إنني أشعر بالحزن لأجلها ، لماذا فعلت ذلك ؟

لا تحزني ، فأجدادنا مارسوا الصيد في حياتهم الأولى ،

وبقيت لنا منهم في ذاكرتنا بعض الرواسب ، نمارسها بين الفينة

والأخرى ، لا يمكن للإنسان أن يخرج من أسر الجينات . ولو مضى وقت سحيق .

الآن عرفت لماذا الطيور تخاف في بلادنا، وفي فرنسا تستأنس ، وتحط على أكفنا في الحدائق والساحات .

وصلا المضارب عصرا، واستقبلهما جروان ، وأخوته بترحاب غامر ، وأنزلوهما في المضافة ، وشربا شفة القهوة العربية اللذيذة ، ثم قام جروان ، ودلهما على خيمتهما المتطرفة.

كانت الخيمة جديدة رائعة ، مفروشة بالسجاد الأحمر الموشى ، وعليها فرش وأرائك ، وقرب الباب حفرة النار ، ودلال القهوة الجاهزة، وقد وضع جروان في الخيمة كرسيين من البلاستيك الأبيض ، ليجلسا أمام باب الخيمة عندما يرغبان .

نصبت الخيمة ، على مرتفع بسيط من الأرض ، أمامها واد عميق ، تحفه الخضرة ، وفي القاع ، ساقية جارية ، هي بقايا سيول تتجمع وتصرف ماءها في تلك الساقية ، التي تجف عادة في شهر تموز و آب ، هذا الربيع ، موسم تفريخ العصافير والطيور

وقد شاهدا بعضاً منها، تحوم على المروج الخضراء ، وبعض شجيرات العوسج ، على ضفاف الوادي ، ومن بعيد ، لاحت سنديانة ، تنهض شامخة قرب العوسج المتواضع ، أخذت دارين بالمنظر الرائع البديع .

قالت له :

- جمال البادية ليس له مثيل ! حتى في فرنسا ، لا تجد مثل هذا الجمال الفريد ، أحيانا الغابات تتشابه في كل المدن ، وكذلك

البحيرات والأنهار ، أما الرمال والبيداء والصحراء ، فلا تجدها إلا في بلادنا الساحرة المعطاء .

قال جروان :

هل ستركبان الخيل ؟ اليوم أم في الغد ؟

بل اليوم ، وفي الغد انت لنا بحصانين .

وأوعز جروان لسانس الخيل أن يأتي بالحصانين ، بعد هنيهة جاء السائس ، ومعه حصانان : الأول ، لونه أبيض ، مرقط ببعض بقع وشامات سود ، والآخر ، بني غامق محجل القوائم ، كانا مسرجين ، ولجاميهما مثبتين بدقة وحول السرج ، كل اللوازم التي يحتاجها الخيال، بما فيها الحبل والبندقية ، سلم السائس الحصان الأبيض ، لدارين والقائم لرهوان ، الذي تفقد السرج وكرب الحزام بقوة ، وقال الدارين :

- قبل أن تركبي الخيل ، تفقدي حزام السرج ، كلما كان مشدوداً بقوة ، كان أدعى للأمان، وأفضل للحصان .

ومن فوره ، كرب لها حزام سرج حصانها، ثم امتطى كل حصانه ، ولوحا بيديهما لجروان ، وصحبه وانطلقا خارج المضارب ، وتمنطق كل من رهوان ودارين، بحزام الرصاص ، ففي الصحراء الكل مسلح خشية الضواري .

انطلقا يسابقان الريح ، ورصد رهوان ركوبها ، وتعاملها مع فتأكد له بما لا يدع مجالاً للشك ، بأنها قد تعلمت الحصان ، الركوب بمهارة.

قالت لرهوان بلهجة منفعلة اعتراها بعض الخوف :

رهوان انظر أمامنا كلب يعدو !

إنه ذنب وليس كلباً اتبعيني .

لكن حصانه ، وانطلق باتجاه الذنب ، وفي الوقت نفسه ، أخرج بندقيته وهياها ، فأصبحت جاهزة للإطلاق ، وعندما أصبحت المسافة قريبة، والحصان يعدو ، سند رهوان بندقيته ، وأطلقها مرتين باتجاه الذنب ، وسمعت دارين صرخة دوى لصداها الأفق ، وعرف جروان أنه قد قتل الذنب، فهيا بندقيته مجددا ، واتجه حتى اقترب من الحيوان ، فوجده ميتا فأطلق عليه طلقة الرحمة .

قالت :

- إنه ميت ، فلم أطلقت عليه طلقة إضافية ؟

الذنب الجريح أخطر بمئة مرة ، فعلت ذلك لأتأكد من موته ، وأريحه من ألم الاحتضار.

ربطه بالحبل ، وجره إلى المضارب ، فاجتمع البدو حوله .

قال أحدهم :

الله درك يا رهوان ، بظرف ساعة ، قتلت ذنبا ، فإذا مكثت بيننا أياماً ، ستبيد كل الذئاب التي أقضت مضاجعنا .

ترجلا ، فأخذ السائس الحصانين ، وجلسا في الخيمة ، يرشفان القهوة المرة ، وقد أشعل لهما صبي كلفه جروان بخدمتهما - النار في الحفرة ، فأضينت الخيمة ، وغمرها الدفء ، كان الظلام قد خيم ، وسطعت نجوم السماء ، بضوئها الباهر.

فللنجوم سحر وألق ، في البادية ، وسهر عندهما جروان ، وجيه بالعشاء ، فتناولا الطعام، وتسامرا ، وقد تضمن العشاء ، طيور القطا التي اصطادها رهوان .

قال جروان :

إن الذئاب قد فتكت بالغنم ويجب أن نضع لها حدا ..

غدا سأتيك ببضعة ذئاب مقتولة .

غادر جروان ، وبقيا وحدهما . السيارة الصحراوية ، عند باب الخيمة ، أنزل رهوان حقيبة الملابس منها ، وارتديا لباس النوم ، وكان الخادم قد جهز لهما ، فراشين من الصوف ، مع أغطية ومخدات مزركشة نظيفة .

قال رهوان :

فراش واحد يكفي اثنين ، ويعطي دفنا أكبر ، وأمانا أكثر ،

فلماذا الاثنان ؟

- كان الأولى إعداد خيمتين ، ثم لماذا فراش واحد يعطي أماناً أكثر ؟

لأن الذئاب قد تدخل الخيمة فتنال منك

لماذا لا تنال منك أنت ؟

إنها تهرب مني ليلا ونهارا ، في البادية وفي المؤسسة .

كذلك أنا لا سلطان لها علي .

- لماذا الجدال ؟ إذا لم تأت ، أنا آتي إلى فراشك ، قبل أن يرتد إليك طرفك

وقفز فقاسمها فراشها ، وضمها إليه فادفاها، وكانت طقوس الحب .

قالت :

للحب في الصحراء ، طعم آخر .

ربما يختلف الحب ، ويتنوع باختلاف الأماكن ، وقد يكون ذلك ، مثل الخلفية الموسيقية التي ترافق الحدث 12.

كل الأماكن معك جميلة ، وقد جمعنا القدر إلى الأبد .

ماذا لو صدر القرار ، بنقلك إلى مكتب الوزير ، فأنت الآن أكفأ مديرة مكتب في كل الإدارات .

- أرفض القرار

يفصلونك من الوظيفة .

ليست الوظيفة أغلى من وجودي بقربك .

لن أدع أيا كان ، يعمل للتفريق بيني وبينك .

ومازالا يتسامران حتى غلبهما النعاس .

استيقظا بعيد الفجر بقليل ، لقد أخذا كفايتهما من النوم بوقت قليل ، ذلك أن نقاء الصحراء وهواءها ، قد أمدهما بالأوكسجين الكافي خلال الليل ، وإن كانا قد شعرا بلدغة برد خفيفة.

فتح رهوان باب الخيمة ، وألقى نظرة إلى الأفق البعيد ، لم يكن النور قد فرد جناحيه على المدى ، بل كان ثمة غبش ، وهدوء، وبدأت زقزقة العصافير تتسلل من بعيد . فقال في نفسه :

.....

12- يسميها أهل الفن " الموسيقى التصويرية .

- هذا صوت سرب من الحباري ، فأين ربض ؟ اعتقد أن

مكان تواجده قريب !

دخل الخيمة وأشعل النار ، فغمر الدفء أرجاء الخيمة ، فقامت دارين تتمطى وارتدت ملابسها بعد أن غسلت وجهها من خزان ماء قريب أعد لهما . فقال لها :

- نشرب القهوة ، ونتناول فطوراً خفيفاً، ونرتدي ثياب الصيد ، ونطارد هذه المرة الطرائد بسيارة الصحراء .

قالت :

هل سنصطاد ذنابا أيضاً ؟

نعم ، وهذا لا يمنع من صيد الغزلان والحباري .

ارتدت دارين بنطالا ضيقاً من قماش متين وفوقه سترة جلدية سوداء ، تحتها كنزة رمادية، وتمنطقت بنطاق رصاص الصيد ، وتفقدت بندقيتها . أما هو ، فقد لبس بدلة خضراء زيتية، مؤلفة من سراويل وقميص ، وفوقه رداء من الجلد الأسود به جيوب ونحوها ، لوضع الرصاص وتمنطق أيضاً بنطاق الرصاص وانتعل جزمة جلدية طويلة ، وفعلت هي مثله بجزمتها ، وقبيل التحرك ، جلسا على كرسيهما عند باب الخيمة ، وقد غمرهما دفء الشمس، التي غطت بأشعتها الأرجاء ، ظهر الوادي، وعلى سواحله خضرته ، التي كللها الندى ، والذي مازال يتلألأ ، تحت الخيوط الذهبية ، براقا لامعا ، وبدت من بعيد ، شجيرات العوسج وفيها طيورها الصغيرة ، تسمع ألحانها العذبة ، بفعل الهدوء ،

الذي ساد المسافات بعيدة ، بينما اخترق الهدوء العذب ، صرخة ذئب جائع من مكان بعيد.

القهوة المرة ، صديقة البدوي جاهزة إلى جانبهما .

قالت :

- في أي ساعة نعود ؟

بعد الغداء . حيث سيذبح لنا جروان خروفين ، أحدهما سيشويه بالسفود 13 المتحرك على نار الحطب ، والآخر سيكون فوق (المنسف مع السمن واللبن .

- هل ستتغدى العشيرة معنا ؟ !

- لا فقط أنا وأنت وأخوتي .

أدخلا الكرسيين ، وأغلقا باب الخيمة ثم صعدا إلى السيارة ، وانطلقت بهما عبر البادية الشاسعة ، شاهدا قطعان الماشية ، وهي تذهب إلى المراعي ، يقود كل قطيع راع يركب على حمار ، ووراءه كبش ساجسي 14 في رقبته جرس يتبعه القطيع ، ويتجه على خطاه أني اتجه أحبت المنظر ، وأخذت بروعته ، وشاهدت الخرفان الصغيرة ، وهي تركض متراقصة فرحة، تتأخر قليلا عن أمها ، ثم لا تلبث أن تعود إليها ، فتلتصق بها ، أو تبحث عن أثدائها .

تجاوزت السيارة القطعان ، وتوغلت أكثر فأكثر في البرية ، ثم توقف رهوان ، عند مجموعة شجيرات ، من العوسج وحقل

.....

13-(السفود) عود من حَديد ينظر فيه اللحم ليشوي (ج) سفافيد.

14- (الساجسي) كبش ساجسي أبيض الصوف كثيره.

كبير من النباتات الرعوية الناهضة ، وفاحت رائحة الشيخ الذكية ، والأعشاب البرية الأخرى ، التي بدأت أزهارها المنمنمة بالتفتح .

قال لها :

لتربض وتكمن هنا ، فهذا الحقل مرعى لطيور الحباري .

وما هذه الطيور ؟

هي طيور كبيرة الحجم ، لذيذ طعمها ، يغرم بها

الصيادون .

بعد مضي وقت قليل حطت حباريتان قريبتان من مكانهما .

فقال لها :

سددي على اليمنى ، وسأسند على اليسرى.

وفعلت كما أمرها ، وأطلقت النيران ، وسمع لدوي الإطلاق ، صدى متتابعاً ، ملأ الأرجاء، عندما انطلق من فوهة البندقيتين أصيب الطائران كلاهما ، ولم يتحركا من مكانهما ، لكنهما اختلجا، وانتثر بعض الريش ، فقام رهوان وتقدم منهما ، وحملهما إلى حقيبة السيارة ، وجاء رف من الزرازير 15 كثيف فأطلقا عليه النار، فسقط منه الكثير ، في أنحاء متفرقة ، وقاما بجمعها ،

ووضعها قرب الحباري .

ثم قال لها :

15- الزرزور طائر من رتبة العصفوريات وهو أكبر قليلاً من العصفور وله منقار طويل ذو قاعدة عريضة ويغطي فتحة أنفه غشاء قرني وجناحاه طويلان مذببان ويستوطن أوروبا وآسيا وأفريقيا (ج) زرازير

لنتحرك من المكان ، وتوغل أكثر في الصحراء ، فانطلقا، وبعد مسيرة نصف ساعة ، لمح رهوان حيوانا يركض من بعيد .

قال لها بلهفة وفرحة !

إنه غزال ! ألا ترينه ، استخدمي المنظار.

رات غزالا يركض فصاحت :

- واو ! ما أجمله ! إنه غزال حقيقي !

أسرعت السيارة نحو الغزال ، واقتربت منه وهو ما يزال

يعدو.

قال لها :

- جهزي بندقيتك بالرصاص الخشن المخصص الصيد الغزلان ، وعندما نتوقف تنزلي بسرعة ، وتبدأي الرمي . التسديد أمام رقبته بمترين ، هي المسافة التي يقطعها الغزال حتى يصل إليه الرصاص فتنالي منه مقتلا

وتوقفت السيارة ، فقال لها :

- انزلي بسرعة ، وأطلقي النار .

ونزل هو أيضا ، وبدأ بإطلاق النار على الغزال ، وفعلت هي كذلك كما أمرها ، فتوقف الغزال عن الجري متعثرا ، وقد أصيب

كان الغزال على بعد مئة متر أو أكثر فعادا وركبا السيارة، واتجها نحوه ووصلا إليه، ما زال حيا ! فأخرج رهوان سكينا من جعبته، واقترب من الغزال فذبحه .

وقالت له وقد اعتراها بعض الخوف :

هذا الدم شديد الاحمرار !

- إنه دم الغزال ، يضرب به المثل ، وهو مميز بين كل الألوان .

حمل الغزال إلى حقيبة السيارة ، ثم ركبا وانطلقا باتجاه المضارب .

وهذه ذئاب ثلاث ، تتجه نحو القطعان ، أسرع نحوها ، ثم نزل ونزلت هي أيضاً ، وبدأ بإطلاق النار على الذئاب ، فقتلوها جميعاً ، نزلا بعد أن تأكدا من موتها ، وربطها بالحبال ، ثم ربط الحبال بمؤخرة السيارة ، وصارت تجر خلفهما وتسحل ، واتجه باتجاه الرعيان الذين سمعوا إطلاق النار ، وعواء الذئاب المقتولة وعندما وصل إليهم ، فك الحبال عن الذئاب المقتولة .

وقال للرعيان :

- خذوا هذه الذئاب معكم عند العودة ، وألقوها في ساحة المضارب ، حتى يعرف الناس، أن الذئاب تقتل ، وتطهر البادية منها ، وأن رهوان سيفني كل تلك الذئاب .

وعندما وصلا إلى ساحة المضارب ، شاهدا جروان يقف قرب كومة من الجمر ، فوقها خروف معلق بالسعود يحركه أحد

الرجال ، وفي الجهة المقابلة خروف مسلوخ ومنظف ، يسلق بالماء والملح ، وقدور كبيرة ، مليئة بالبرغل والفريكة ، تطهى بالسمن العربي ، واللبن العربي، استقبلهما جروان وأخوته بالترحاب وجلسوا ، وهم يشاهدون السماط وهو يجهز، والغداء ، وهو يحضر، وأعطى رهوان تعليماته لدارين ، وعلمها كيف يكون الأكل باليد في البادية، وكيف تعصر اللقمة باليد اليمنى ، ثم تقذف في الفم فيتلقاها ، وكيف يتم تناول اللحم وشرق اللبن فضحكت ،

وقالت :

أول مرة أتناول فيها الطعام ، بهذا الشكل.

انتبهي لأظافرك الطويلة

كان جروان يسترق السمع ، ففهم الحديث وضحك لجهلها العادات البدوية .

ثم توجه إليهما بالقول :

- لا تجزعي سأقدم لك طعامك بصحن صغير ، مع ملعقة وشوكة ، وأما اللبن فسيكون في إبريق من البلور .

- أشكرك كثيرا يا جروان ، على هذه الخدمة الرائعة ، لأنك وفرت علي كثيرا من الإحراج .

قال رهوان لأخيه :

- لقد اصطدنا غزالاً وبعض الطيور ، أوعز إلى أحدهم ليسلخ الغزال وينتف الطيور وينظفها ويضعها في كيس بلاستيكي أبيض ويلف الغزال بكيس من القماش الأبيض كذلك لأني سأقدمها هدية لأم دارين وليضع كل ذلك في السيارة ، و معها

علبتان كبيرتان من الخشب فيهما لبن رائب ، وشيء من القشدة

و الزبدة . دقائق وسيكون ما طلبت في حقيبة السيارة .

تناولوا جميعاً طعام الغداء الدسم وخافت دارين على رشاقتها لكنه طمأنها قائلا :

- غداء دسم مرة في الأسبوع لا يجلب البدانة .

وعادا إلى الخيمة بعد شرب الشاي وتبادلا الأحاديث مسرورين .

- ما رأيك بإغلاق الخيمة ، ونزع اللباس والنوم في هذه -الصحراء .

ضحكت وقالت :

- أنت لا تشبع من هذه الأمور، أتريد أن تمضغنا الألسن ، لو كنا متزوجين ، لما كان بالأمر بأس ، لنستعد للعودة قبل حلول المساء .

واستعدا للعودة ، بعد وضع حقائبهما في السيارة ، ودع رهوان أخوته ، وكذلك فعلت دارين ، وعادا إلى دمشق .

وعند وصولهما إلى بيت أهلها في (عرنوس) ، حملا الصيد ، و الغزال واللبن ، وأدخلوا ذلك إلى البيت ، فاستقبلتهما الأم والجدة ، بـ الـ (أهلا وسهلا) .

قال رهوان :

- هذا غزال اصطدناه من البرية مع بعض الطيور، ذات الطعم اللذيذ ، أرجو أن نتغدى عندكم غدا ، من لحم ما اصطدناه .

قالت الأم :

كنت أعلم أنكما قد ذهبتما إلى المضارب والبراري ، وكنت أعلم أن ابنتي قد قدمت تسويغا للموافقة ، ولكن من الآن وصاعدا ، أنتما حران اينما ذهبتما ، وليس من داع للمواربة ، لعل القدر الذي جمعكما ، أن يجعل منكما زوجين في المستقبل . لو كنتما متزوجين لكان ذلك أفضل لسمعتنا .

قالت دارين :

- إن صك الزواج ، ليس فيصلا ، فكم من متزوجين ، يحملون صكوكاً يختانون أنفسهم.

قالت الجدة :

- هذا الكلام ليس دقيقاً ، فنحن لسنا في الغرب ، والزواج الصحيح هو الحلال ، وما عداه مرفوض .

قال رهوان :

عرضت عليها الزواج ، أكثر من مرة ، فقالت ننتظر حتى نصبح في دائرتين حكوميتين منفصلتين ، وأنا لا استطيع الاستغناء عنها ، ولا يمكن لأخرى أن تحل محلها في الوظيفة .

قالت دارين :

- لنترك ذلك للزمن ، الذي هو كفيل بحل أعقد المشكلات

صعوبة .

11

مرت سنوات كثيرة ، على عودة دارين من باريس ، وهاهي الآن وقد تعدت الثلاثين من عمرها ، ولم يحدث لحياتها إنجازا كبيرا كما كانت تحلم عقب عودتها ، بقيت في المديرية كما بقي رهوان ، روتين العمل الصباحي نفسه لم يتغير، وطقوس للسعادة في المساء نفسها ، لكنها فقدت طابعها العنفي ، كما قرر رهوان .

بعد عودتها مباشرة ، الخط البياني لحركة حياتهما ، كاد أن يكون مثل خط نبض الميت مستقيماً خامدا ، ليس فيه صعود أو هبوط ، حتى طقوس السعادة ، فقدت الكثير من وهجها وحرارتها .

ومرة سألتها أمها :

- أذكر عندما عدت من فرنسا ، كنت تتحدثين عن آمال وانجازات ، ستحققينها في المستقبل ، وعن ارتقاء في السلم الوظيفي والاجتماعي ، وأن بإمكانك أن تكوني مثل مديرات مكاتب رؤساء الدول ، فما مصير تلك الأحلام ؟

رهوان الذي كان السبب في نهوضي، تحول الآن إلى واقع يجمدني ، ويمنع تطوري وصعودي كثير من الوزراء طلبوني إلى مكاتبهم فعارض ، وكثيرة هي الإدارات

والمعاهد التي رغب مديروها أن أعمل دورات لموظفيها ، كان رهوان يرفض ، ويمنعني من الالتحاق ، وبقيت حيث أنا ، إنه يغار على بطريقة مدهشة ، لا يصدقها عقل ..

إذا كان يحبك لهذه الدرجة لماذا لا يتزوجك ؟

أجل هذه الرغبة ، حتى يخرج أحدنا من الوظيفة ، أو

يصبح وزيرا .

العمر يتقدم ، أنت الآن في الثلاثين، فرصك بالحمل تقل ،

الا تحبين أن يكون عندك طفل جميل ، فتشعري بعاطفة الأمومة ؟ أحب ذلك ، ولكن خروجي من دائرته يعني تدميره

وانتهائي .. لا أرحمك ! ولا أدع رحمة ربك تحل عليك ! انطبق علينا هذا القول ، انتقلي إلى مكتب الوزير، تزوجي .

يقول : إنه لا يسمح لزوجته أن تكون مديرة مكتب وزير ، يشعر أن ذلك ينقص من كرامته .

إذن تزوجيه ، والتزمي بيتك وأولادك، واتركي الوظيفة.

لا أريد أن أخسر وظيفتي ، وأقعد في البيت خادمة له ولأولاده ، أو أكون وعاء متعة فقط .

هل تغيرت عواطفه نحوك ؟

ليس كثيرا ، ولكن لكل جديد بريقه ، بعض الأحيان ،

تصبح حتى العواطف معلبة في قالب روتيني مكرر .

أشعر بمعاناتك ، ولابد من إيجاد الحلول .

في هذه الأثناء ، وخلال هذه السنوات التي انصرمت ، كان عزيز وزوجه ، يعملان بجد على مشروعهما ، وقد أنجزا بناء المشفى ، إنها تشبه القلعة الحقيقية ، كما حلم وأراد ولقد أنجزا أهم من هذه القلعة ، تعليم أبنائهما الأربعة ، وقد تخرجوا من كليات الطب ، و تخصص كل واحد منهم باختصاص لائق ، فكان ذلك نواة كادر طبي يدير المشفى .

أما الدكتورة رضية ، فقد كونت في ذات الوقت جهازا متكاملاً ، وكادراً متخصصاً من أطباء مشهورين ، تمتعوا بسمعة

طيبة ، وكفاءة عالية ، وبدؤوا بالعمل في المشفى ، بعد أن جهزت بكل المعدات ، والأجهزة المتطورة الحديثة والراقية ، والتي تم استيرادها حسب أعلى المواصفات ،

الروعة في هذه المشفى أن الطابق (البانورامي (الأخير ، يطل على دمشق بكاملها، والواقف فيه ، يشعر بأنه طائر محلق ، فوق المدينة يرى كل شبر فيها ، في هذا الطابق قاعة كبيرة لاجتماعات ، الأطباء ، والمعاونين والممرضين والممرضات ، وفيه أيضاً مكاتب مؤثثة ومفروشة ، بأرقى أنواع الفرش ، وقد اختص عزيز بمكتب ، وزوجه أيضا بمكتب، إضافة إلى أولاده الأربعة ، فكان لكل واحد منهم مكتبه الخاص ، أما بقية المساحة (البانورامية) فقد فرشت بالأرائك الجميلة الملونة ، وأعد في هذا الطابق ، كل ما يخطر على البال ، من مرافق وغرف نوم مجهزة .

في الطابق الأول ، كانت مساحة للاستعلامات ، ومساحة للصيدلية الكبيرة الواسعة، أما مكاتب الإدارة ، فكان أهم مكتب للمدير الإداري ، ويحوي كاميرات وأجهزة مراقبة ، وأجهزة الكومبيوتر الحديثة ، التي تدخل البلد لأول مرة ، وقد احتلت هذا المركز الدكتورة رضية ، فأدارت المشفى ، كأحسن ما تكون الإدارة .

وكان للمشفى منهاج له قصة طريفة ، فأول البذور كانت جلسة في مقهى القمر الأزرق ، ضمت هذه الجلسة كل من الشيخ أدهم العنتيلي، وعزيز وزوجه الدكتورة رضية ، وبعض الأكاديميين ، أصدقاء عزيز مثل الدكتور رضوان، وآخرين من جلساء الشيخ أدهم ومحبيه.

يومها قال عزيز :

أريد أيها السادة ، أن نتعاون في وضع منهاج ، وطريقة عمل في مشفانا ، الذي أنجز وسيبدأ العمل به قريبا ، أريد أن يكون استثمارياً خاصاً ، وفي الوقت نفسه ، خيريا يجمع بين صفتين تبدوان متناقضتين ، أريد أن يفيد الشرائح، المحتاجة من أبناء الحي، والأحياء المجاورة ، وأن يكون استثماريا ، بحيث يغطي مصاريفه ، ويبقي رافداً ضئيلا ، لأولادي الأطباء الأربعة ، ليعيشوا ويعلموا أولادهم ، لا نريد تكديس ثروات، فأرجوكم يا سادة، أن تضعوا لي أجندة مناسبة لهذه الفكرة .

قال الشيخ أدهم العنتبلي :

خصص يوماً للمعاينة ، والكشف المجاني للجميع ، وليكن يوم الجمعة .

وافقت يا مولانا ، على هذا الشرط وأضيف من عندي أيضاً ، أن يكون يوم الأحد معاينة مجانية أيضاً .

قال الدكتور رضوان :

ليكن البيع في الصيدلية ، بربح جد ضنيل، وأن يتقاضى الصيدلي ، الذي يديرها راتباً من إدارة المشفى .

قالت الدكتورة رضية :

أوافق على هذا الاقتراح ، وأرى أن تكون المعاينة المجانية على مدار العام ، للأكاديميين وأسرهم تشجيعاً لهم ، وأن تكون المشفى مركز أبحاث للأطباء الاستشاريين ، والمكتشفين لأدوية الأمراض المستعصية ، والبحوث الطبية المتقدمة ونحن على استعداد لتقديم كل ما يلزم لهم ، من أجل هذه البحوث ، ونخصص لهم مختبر أبحاث تحت تصرفهم .

قال أكاديمي حضر الجلسة وسمع الحديث :

يجب أن يكون الكشف الطبي والمعاينة، حسب تسعيرة وزارة الصحة .

قالت الدكتورة رضية :

بل سنجعل التسعيرة أقل من تسعيرة وزارة الصحة .

قال الشيخ أدهم العنتيلي :

تأكدوا أيها السادة ، أن الله سيبارك هذا العمل ، ويكثر الرزق والخير في هذا المشفى ، الذي أراد أصحابه عمل الخير ، وسيكون صدقة جارية مدى العمر ، لأن الله يمحق الربا ، ويربي الصدقات ، ويضاعف للخيرين أعمالهم .

ووضع محامون - على ضوء هذه الأفكار النظام الداخلي للمشفى ، والمنهج الذي تسير عليه وفق تلك الاقتراحات ، وبدأ العمل ، وتقاطر الناس على المشفى مهنئين ، بعد أن عرفوا النوايا، ولمسوا الخدمات ، وشاع الخبر ، وأكتسبت تلك المشفى سمعة عطرة ، وانهالت الثناءات من كل حدب وصوب ، وإمعاناً في الوفاء من عزيز، لذكرى أبيه ، الطيب المكافح ، سمى مشفاه مشفى حمد و لكافة الاختصاصات ، وعلى مدار الساعة

وزار عزيز ، خالته نبال الدجاني ، ودعاها لحضور حفلة افتتاح المشفى ، وعرض على دارين أن تستلم ، إدارة المشفى

وقال لها :

إن خبرتك ومؤهلاتك ، وقوة شخصيتك، التي اكتسبتها من العمل والدراسة والحياة ؛ كفيلة بأن تجعلك تديرين المشفى على خير وجه .

وبالنتيجة هذا المشفى لك ، لأن ما يملكه الأخ ، يعود على الأخوة بالخير والمنفعة .

وافقت دارين في قرارة نفسها على هذا العرض ، واعتبرته فرصة للتخلص من الجمود والمراوحة التي تعيشها ، لكنها قالت لأخيها :

أترك لي وقتا لأفكر في الأمر وأعطيك الجواب .

سيكون راتبك أضعاف ما تتلقين من وظيفتك الحالية .

أسري . - المادة ليست مشكلة ، والمشروع برمته بمثابة مشروع

عندما غادر عزيز وزوجه ، قالت أمها :

لا توافقي على عرضه

- ماذا ؟ !

بعد كل هذا التعب والسفر والمعاناة مع رهوان ، تصبحين تحت إمرة عزيز وزوجته رضية ، هذا لن يكون ، ولو أعطاك

راتبا بعشرات الآلاف .

بالمحصلة عزيز أخي !

أخوك من أبيك ، إنه ابن عديلة الأقرع .

وعرضت الفكرة على ، رهوان في إحدى جلسات صفائهما .

فقال :

عرض مناسب ، ومنصب اجتماعي راق، ورئيسك أخوك وهذا يعني أن لا خوف منه ، وبهذه الحالة نقطع الطريق ، على كل وزير يضع عينه عليك ، ليجلبك إلى وزارته ومكتبه ، لأن أكثر من خمسة وزراء ، فاتحوني من أجل نقلك فمانعت ، وراجعت الحزب ، وأفسدت عليهم رغبتهم ، اقبلي عرض أخيك .

لكن أمها عارضت ، وقالت :

إن توظفت عند عزيز ، فقدت رضاي إلى الأبد ، وانهال غضبي عليك ، ولن تفلحي إذن أبدا.

- إذن ، ماذا يتوجب علي أن أفعل ؟

التحقي بمكتب الوزير ، بعدها تزوجي رهوان .

لن يوافق رهوان على ذلك ، فلا يريد لزوجته أن تعمل بمكتب وزير .

انتقلي إلى مكتب الوزير، بدون أن تتزوجي رهوان ، وأبقي معه الصداقة والحب، حتى يحين الوقت المناسب .

- ماذا أحصد من ذلك ؟ عند رهوان وظيفة، وفي مكتب الوزير وظيفة ، فالأفضل أن أبقى مع من يفهمني .

في مكتب الوزير تستغلين وظيفتك للمنفعة، فتثرين . الذين أقل منك جمالا وكفاءة ، صاروا من أصحاب الملايين .

هل تحرضينني على الرشوة وتدفعينني في طريق الفساد ؟

هذا ليس فسادا ، إنه طريق استرداد ثروتنا التي ضاعت في

بيروت .

أوافقك على هذا المنحى ، وسأبقى في مكتب رهوان

وانتظر .

كان رهوان ، يعاني من حالة إحباط ، اعترته بعد أن رأى الفساد ، يستشري في مفاصل هامة من اقتصاد البلد ، فالقطاع العام

الاقتصادي الذي هدف إلى حماية البلد اقتصاديا ، وخلق حالة من

التوازن ، بين أنانية القطاع الخاص ، وبين الفعاليات الاقتصادية

الوطنية المنتجة ؛ قد بدأ يدب فيه الفساد ، سبب ذلك مفاصل الإدارة

فيه التي دخلها ذئاب الفساد ، فاستغلوه ونهبوه ، مع أنه بالأساس ،

وجد من أجل منع النهب ، ومنع الاحتكار والاستغلال . وأبسط

مثل؛ أن كيس الإسمنت يباع للمواطن من القطاع العام مباشرة

بعشرين ليرة ، بينما يباع بمنتي ليرة في السوق السوداء ، وكذلك

الخشب والحديد والبورسلان والسيراميك ، يباع في مؤسسات

الدولة بسعر، وبعشرة أمثاله في السوق السوداء ؛ ولكن من يجلب

بضائع القطاع العام إلى السوق السوداء فيستفيد؟ ! الجواب بسيط ،

إنهم بعض مديري وموظفي القطاع العام نفسه ، يتعاملون مع السماسرة ، لقاء هامش ربح بسيط ، وحصة الأسد لأولئك الموظفين الفاسدين ، فاستفاد ، المتعهدون والتجار ، والسماسرة من ذلك ، ولم يستطع المواطن العادي ، الحصول على بضاعة القطاع العام ، لأنها حجزت من الفاسدين والمفسدين وبيعت بأغلى الأسعار ، كان الخطأ في وضع هؤلاء بإدارة القطاع العام ، وليس بفكرة القطاع العام نفسه ، فحتى في الدول الرأسمالية يوجد قطاع عام،

يحمي اقتصاد البلاد ، وخاصة القطاعات الكبيرة ، والعظيمة ، والفائقة الأهمية ، والتي لا يمكن للقطاع الخاص أن يديرها ، وإذا ادارها حرفها باتجاه مصالحه ، لا باتجاه مصالح المجتمع، أو الأكثرية الغالبة ، والأنكى من ذلك، أن كل الأخطاء ، التي حدثت أثناء الممارسة الفاسدة ، لتلك الإدارات ، استغلت بدهاء شرير الصالح تلميع القطاع الخاص ، وبأنه المخلص الوحيد من الفساد ، عن طريق إغراق السوق بالبضائع الأجنبية ، والذي يستدعى المنافسة وهبوط الأسعار وتوفر السلع ، ولكنهم تناسوا أن ذلك سيقضي على الصناعة الوطنية ، ويلغيها إضافة إلى ذلك ، فإن أرباب القطاع الخاص الطفيلي ، الداعين للتجارة الحرة ، واقتصاد السوق، هؤلاء جعلوا من القطاع العام ، مشجبا لتعليق كل تلك الأخطاء والانحرافات عليه ، ففي رأيهم هو مصدر الفساد وسببه ، فازداد عدد الداعين إلى التخلص منه ، حتى تخلو الساحة لهم ،

لذلك كان رهوان مهموماً ، ويخاف أشد الخوف من الفاسدين ، الذين شبههم يوما بالفئران التي تقرض خشب السفينة ، وفي مرات أخرى بالذئاب التي يجب اصطيادها ، كان يعلم أن الاقتصاد هو الوجه الآخر للسياسة ، ومكمل لها ، بل ربما هو الذي يحدد مسارها ، ويرسم منهجها .

وللتنفيس عن همه ، كان يلتقي مرارا ، برفيقه رامز إسبر ، في مكتبه ليلا ، ليبث همومه وانزعاجه من تلك الأمور ، كان يجد فيه الإنسان المتفهم بعمق ، لمجريات الأحداث .

اجتمع به مساء ، بعد اتصال هاتفي ، وبعد أحاديث عامة .

قال رهوان :

- قد وصل الفساد إلى بعض الإدارات تخسر، قد وصل الفساد ، إلى بعض إدارات القطاع العام ، وبدأت والدولة صامتة ، بل و تمده بالدعم والمعونة ، وهو بالأساس - أي القطاع العام - قد كان الهدف منه ، رقد الميزانية ، وتقويتها ، والآن ينقلب إلى مصرف لهذه الميزانية، أي أن نقطة القوة تحولت إلى نقطة ضعف .

قال رفيقه إسبر :

الذئاب تتكاثر ، وأنت سميتهم في يوم ما كذلك ، وأظن أن غياب الرقابة ، وفعاليتها واختيار المديرين عن طريق الولاء ، والمحسوبية ، لا عن طريق الكفاءات ، هي السبب الرئيس ، في ظهور الفساد في هذه القطاعات .

- لماذا لا تطبق نظرية ، من أين لك هذا؟ ويحاسب الفسادون.

المشكلة أنه إذا طبق هذا القانون ، ستتكشف أمور ، يود البعض إخفاءها ، وإذا كشفت سيجر كثيرون إلى المحاكم ؛ بعضهم في السلطة .

ليجر المسيء مهما كان !

معنى ذلك أن أبو رأفت الدلو سيجر للمحاسبة ، وقد عارض فكرة المحاسبة ، وفق نظرية من أين لك هذا ، لأن ذلك

سيفتح أبوابا تهب منها الريح ، لذلك أغلقوا النوافذ .

المشكلة ؛ أن أصواتا ، بدأت تنادي بإلغاء القطاع العام ، لأنها اعتبرته سبب الفساد ، وهو ليس كذلك ، سبب الفساد الإدارة

الفاسدة ، التي باعت بضائعه في السوق السوداء ، وإن إلغاءه سيركز رأس المال ، بيد عدد قليل من البرجوازيين ، في القطاع الخاص الذين سيهربون الثروة الوطنية إلى الخارج .

هذا صحيح ، ويجب الانتباه إليه ، وعدم ترك القطاء الخاص، بدون لجم وإلا فإن البضائع الوطنية ستضرب وستغلق المعامل .

- كيف ذلك ؟

- يغرق السوق بالبضائع الأجنبية ، التي هي أجود وأرخص، ويفرح بعض الناس بوفرتها ورخصها ، ولكن الفرحة لن تدوم ، والمعامل الوطنية ستغلق أبوابها ، والأرصدة تتحول للخارج ويستفحل التضخم ؛ فتعود الأسعار للارتفاع .

في كل بلدان العالم ، توجد حماية للصناعات الوطنية ، واجد أن الحماية ، قد بدأت ترفع عن صناعاتنا الوطنية .

يكاد يسيطر الآن - على قطاعنا الخاص - قطاع طفيلي ، ينتج العلكة والمحارم فقط ، ولا يلتفت إلى الصناعات الأساسية والثقيلة ، فمثل هذا الإنتاج للعلكة وسواها ، سريع الربح ، ويهرب مردوده للخارج بسهولة . البرجوازية الأوربية كانت وطنية ، ولم تكن طفيلية كما هي عندنا ، وعلى أكتافها قامت النهضة والاختراعات .

بشيء . هؤلاء هم الذئاب الحقيقيون ، وليست ذئاب البادية أمامهم

على الحزب والدولة ، إدراك ذلك ومحاربة الذئاب .

ودع رفيقه ، وعاد إلى البيت ، منهك القوى يانسا محبطاً ، اشترى زجاجة ويسكي ، مضت سنوات ولم يشرب المسكر ، لأنه قرر أن يتغير، وهاهي الظروف ، تعيده إلى المربع الأول ، لم

يحضر كأسا ليصب فيه ، بل وضع فوهة الزجاجة على فيه ، يطفئ بالخمر ما عجزت الإرادة والعقل عن إطفائه .

بعد أن فرغت الزجاجة ، اتصل بدارين في الواحدة ليلا ، وكانت نائمة فاستيقظت .

قال :

هل تستطيعين الآن المجيء إلى بيتنا في العدوي؟

هل جننت ! الساعة الآن الواحدة صباحاً .

فرزت لك سيارة خاصة ، لتنفذي مثل هذا الطلب .

أظن أنك قد عاودت الشرب ، سألقاك في المكتب صباحاً وداعاً ، وأغلقت الهاتف .

عاد رهوان الخمره ، وعنفه ، ينفث في الخمر والعنف أحزانه وإحباطاته ، عاد القنوط واليأس لحياته .

في الصباح التقيا ، هي عاتبة وهو حزين شربا القهوة ، وهو مصفر الوجه منكسر الخاطر .

قالت له :

ما بك هل أنت مريض ؟

لست مريضاً ، ولكن الأمة مريضة .

- ما مرضها ؟

سرطان ذنبي يتفشى في جسدها !

لكل شيء حل .

يبدو أن الطريق مسدود .

الإرادة والعقل ، والعمل الدؤوب تحل أكبر المشاكل .

- هناك أشياء لا يحلها إلا الموت .

- أنت تقول ذلك ؟

نعم لأنه لا دواء للسرطان الذنبي !

عادت إلى مكتبها ، وانشغل هو ببعض الأعمال ، إلى أن جاءه بريد الوزارة ، وفيه الأوامر والتعليمات

قرأ أمرا إداريا من الوزير ، أكبر من الصاعقة ، إنه (تسونامي)16 حقيقي مفاده : " توجب نقل دارين إلى مكتب وزير الجعالات والاستيراد للمصلحة العامة " ، إلى مكتب الوزير أبو رأفت الدلو ، كمديرة لمكتبه ، والأمر يتضمن صيغة النفاذ العاجل ، أي أن عليها أن تلتحق بمكتب الوزير ، خلال يوم أو يومين .

صعق لهذا الأمر الإداري المفاجئ ، كان يعلم أن أبا رافت الدلو ، قد عزز مركزه في الوزارة ، وأصبح أقوى من أي وقت مضى ، وقد نسق مع مركزين قويين ، دعماه فاجتمع حوله لفيف من الانتهازيين والوصوليين ، أصبح قويا وها هو يتحداه واستدعاها إلى مكتبه ، وألقى أمامها بالأمر الإداري .

وقال :

- الوغد يريدك !

قرأت ما أعطاها بهدوء ، وتمهل .

.....

16 - اسم لأحد الأعاصير المدمرة في القرن الحادي والعشرين

ثم قالت :

" على نفسها جنت براقش " ، ماذا يغيظك في الأمر ؟ إننا سنكتشف نقاط ضعفه وأخطائه، وبوجودي في مكتبه ، سأراكم له الأخطاء ، التي ستكون سلاحا بيدك ، لإنهائه والحلول محله .

سينال ، منك قبل أن تتمكني من فعل شيء، وهو الآن مدعوم ، وسيجد من يمحو له الأخطاء .

هل لديك حل آخر ؟

أن أقتله بمسدسي هذا !

اتفقنا أن نعمل العقل ، فلا نقترب من التصرفات الهوجاء ،

اترك الأمر لي ، وستجد أن هذا لصالحنا لا ضدنا .

أخشى أن تتحولي إلى امرأة كهنود الضبعان !

ضحكت بعمق وقالت :

من هذه الناحية ، اطمئن .

12 والأخيرة

ذهبت لمكتب الوزير ، وكان أول يوم لها في الوزارة . انتظرت في مكتب رئيس المكتب أغلب الموظفين في الوزارة ، يأتون في التاسعة أما الوزير ، فلا يأتي قبل العاشرة ، هذا ما فهمته من رئيس مكتب الوزير ، أسعد المارق الذي طلب لها فنجان قهوة، ورحب بها كثيرا .

في العاشرة وصل الوزير مع مرافقين وحرس ؛ فقبع كل موظف خلف طاولته ، يعمل أو يتظاهر بانهماكه في العمل ، ولما دخل الوزير إلى المكتب وجدها بانتظاره ، وقفت له فمد يده إليها مصافحا .

وقال :

- شرفت الوزارة .

وابتسم ابتسامة خبث وظفر ، ثم أضاف :

تفضلي إلى مكتبي يا أستاذة ،

خلع معطفه ، وعلقه على مشجب في الزاوية ، ثم جلس خلف طاولة عريضة مزخرفة القوائم ، فيها أبهة وفخامة ، وأشار إليها بيده : أن اجلسي على الكرسي الجلدي العريض ، إلى اليسار من الطاولة ، ثم عاد ورحب بها ثانية ، واتخذ بعد ذلك هيئة جدية.

وقال :

- مدام دارين ، أنت ذات كفاءة ، وخبرة وظيفية ، ومسلكية عظيمة ، وقد أرسلتك الوزارة منذ سنين ، الدورة في فرنسا ، لم يحظ بها غيرك، وقد نجحت بتفوق باهر ، وكان من الأولى بعد عودتك ، أن تدربي كوادر مديري المكاتب في وزارتنا ، والوزارات الأخرى ، على ما تعلمته من علوم وأداب في الإدارة، ولكن رهوان الأزدي - أصلحه الله - احتفظ بك كل تلك الفترة الطويلة في مكتبه ، وحمد إمكانياتك ، وكما قيل من كتم علما فكأنما جهله ، والوزارة ، لم تستفد من خبرتك وعلمك المتأتي من تلك الدورة ، نتيجة استئثار رهوان بك ، كما أسلفت ، وإن قرار نقلك إلى مكتبي ، غايته : نشر خبرتك ، وعلمك بين كل كوادر الوزارات ، لذلك فإنني سأصدر اليوم أمرا بإقامة دورات ، المديري مكاتب وزارتنا ، وساعمم على بقية الوزارات والحزب ، نبأ الدورة التي سنقيمها ، ليرسلوا بعض عناصر وزاراتهم ، لمشاركتنا الدورة، فندربهم كما تدرب عناصرنا ، وقد يبلغ تعداد الدورة ، الألف أو أكثر ، ولا توجد قاعة في وزارتنا ، تسع لمثل هذا العدد،

لذلك فإنني سأستخدم قاعات المركز الثقافي ، (بأبي رمانة) وأجعلها مكانا للدورة ، و التي سيكون الدوام فيها ، من الثامنة حتى الرابعة عشرة وأنا متأكد من نجاحها ، وساضع معاوني لتنظيمها وضبطها ، وما عليك أنت إلا إعطاء المحاضرات والتدريب العملي، ضمن القاعة إذا اقتضى الأمر.

- مناط بك الآن عمل عظيم ، ومن خلاله سيعرفك كل القادة الإداريين في الوزارات والحزب ، وستشتهرين كأعظم محاضرة في الإدارة ، وأصول التعامل الرسمي ، ومبادئ السياسة الوظيفية ، وسنختصر المدة إلى شهرين، فعليك إعداد المناهج والبرامج من الآن ، وخلال أسبوع ، وعند انتهاء الدورة ، تعودين

إلى الوزارة كمديرة وأمينة سر المكتب الوزارة بكامله وسيتضاعف راتبك ، لأننا سنخصص لك طبيعة عمل ، وبدل لباس ووصيف ، وتأكدي يا ابنتي ، أن نقلك للوزارة ، كان من أجل المصلحة العامة، ومن أجل مصلحتك أيضا .

ارتاحت لقوله ، وشعرت بأن لهجته وخطابه كان خطاب أب، يتجه لابنته بالوعظ والإرشاد والتوجيه ، ولم تلحظ منه أية نظرة غدر ، بل كان في أكثر الأحيان يخاطبها بكلمة (يا ابنتي) ويغض الطرف ، ويقلل من الحملقة بجمالها ونضارتها ، ولا يتفحص بنظره جسدها ، بل كان طيلة حديثه ، ينظر في دفتر أمامه أو ينظر للنافذة وإذا نظر إليها فإنها نظرة أبوية ، ولم يكن متغطرسا ، أو مستخدماً لهجة الرئيس ، وهو يخاطب مرؤوسه بتعال وفوقية .

فقالت في نفسها : إن رهوان قد بالغ في وصفه بالذنب ، ربما لأنه يحقد عليه ، لاحتفاظه بمنصب الوزارة ، التي كان رهوان يتطلع إليها .

قالت :

- أرجو أن أكون عند حسن الظن .

وتمشى معها في غرفة مدير مكتب الوزير، والتي ستحتلها بعد انتهاء الدورة ، واستلام منصبها الجديد ، كانت غرفة كبيرة ، فيها مكتبة ضخمة، وخزانة أرشيف ، إضافة إلى الطاولة الفخمة والحاسوب الجديد .

وقال لها :

لقد وصل هذا الحاسوب حديثاً إلى الوزارة ، وسيأتي مهندس المعلوماتية ، ليدربك على استخدامه ، وهو من طلائع الأجهزة ، التي وصلت القطر حديثاً ، وقد سبقنا الغرب في استخدام هذا الاختراع العجيب ، وبإمكانك أن تداومي مساء ، مع الموظف المشرف ، وأمين السر ، للاطلاع بالتدريج على المهام التي ستوكل إليك .

اعرف استخدامه ، وقد تدربت على ذلك في فرنسا .

- عظيم جدا !

والتقت برهوان في المساء بالبيت ، وكان قد أعد عشاء وخمرا ، وأخبرته بما جرى لها مع الوزير .

فقال :

إن أبا رافت الدلو ، ثعلب ماكر ستكشف لك الأيام ، نواياه

الخبيثة .

كان معي بمنتهى اللطف ، وعاملني معاملة أبوية ، ولم الحظ شيئا من مكره .

- الداهية الماكر ، لا يظهر هدفه من أول الأمر ، يستدرج الطريدة ليختبرها ، ويعرف نقاط ضعفها ، ثم ينقض عليها كما ينقض الذنب على الشاة .

ضحكت من قوله ، وقالت :

علينا الآن أن ننقض على الطعام ، فإنني أشعر لأول مرة بجوع شديد ، ورغبة قوية للطعام.

وأنا الآن أشعر بالعطش للخمر وإليك، كما لم أشعر بمثل

هذا العطش من قبل

بعد العشاء ، قام رهوان بطقوسه القديمة العنيفة ، حتى أنها

قالت له :

- إنك تؤذيني ، ألم نتفق على التخلي عن هذه الطقوس

العنيفة ؟

أداوي الإحباط بالعنف والخمر.

في صباح اليوم التالي ، طلبها الوزير فدخلت مكتبه ، فأحضر الحاجب القهوة وشرباها معا . ثم قال :

- لقد خصصت لك سيارة ، فخمة ، سوداء حديثة ، بل هي الأحدث بعد سيارتي ، إنها أفضل بكثير من سيارة رهوان ، واحدث موديلا ، هي بمثابة ملك لك ، طيلة وجودك في الوزارة ، وأنت حرة في استخدامها ، خلال ساعات اليوم كله ، وبالطريقة التي تعجبك ، أنت الآن أمينة سر وزارة التعيينات والاستيراد ، أي أنك وزيرة الظل، ومرشدة الوزير وموجهته ، وسأخصص لك حارساً للحماية ، وسائقا للسيارة ، وبإمكانك صرف هؤلاء متى

اردت .

وحضرت في المساء بالسيارة الجديدة إلى بيت رهوان ، وحكت له ما جرى مع الوزير .

قال رهوان :

إنها طعم معلق في سنارة ، سيصطاد الوزير الدلو ،

السمكة المفضلة عما قريب .

ضحكت من غيرته . وقالت :

السيارة مخصصة لأمين سر الوزارة ، وهو لم يهدني إياها من مال أبيه ، وإذا تركت الوزارة سيستلمها غيري ، وهذا من حتى الآن .

قال رهوان :

ارجو أن يكون كلامك صحيحاً ، ووفاؤك دائماً .

في اليوم التالي ، استدعاها الوزير إلى مكتبه . وقال :

- هل أصبح منهاج الدورة وبرنامجها جاهزا .

- نعم كل التحضيرات أصبحت جاهزة .

من السبت القادم ، سوف تبدأ الدورة وأرجو لك التوفيق .

انت القهوة ، وأصبح كل منهما يرتشف فنجانه ، وينظر في الآخر ، محاولا سبر نواياه وكشف مراميه .

قال لها :

- أتدرين ؟ إن كثيرين من أمناء سر الوزارات ، يصبحون وزراء بعد فترة قليلة من الزمن ، لأنهم من خلال موقعهم يتدربون على العمل ، في إدارة الوزارة وقيادتها ، ويتعرفون إلى أصحاب القرار ، ويمثنون معهم المصالح المتبادلة، وأنا أعتقد أنك ستصبحين وزيرة ، في يوم ما ، لاسيما وأنك من خلال هذه

الدورة، سيعرفك كل المسؤولين أصحاب الحل والربط وبالمناسبة فإن بعض أعضاء والقرارات الهامة والمصيرية ، القيادة ، من خارج الوزارات سيحضرون هذه الدورة ، وقد عممت أنا أيضا الخبر إلى دوائر الحزب .

فرحت كثيرا ، واعتقدت أنها وصلت إلى أول طريق المناصب ، بل ربما تجاوزت رهوان نفسه ، وها هي تصبح الآن منافسة له على الوزارة، وقالت في نفسها :

على أن لا أطلع رهوان ، على كل تفاصيل ، ما يمر بي ، ولا ما يدور بخاطري من أمال ، وخاصة طموحي للوزارة ، التي رغبني بها الوزير الدلو ، لأنه سيري بي خصما منافسا، وعلي الا أذكر له ، ما يدلي به إلى الوزير ، من نصائح وإرشادات حتى لا يجهضها ، وأن لا أعلمه إلا ببعض العموميات ، التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

ونجح الوزير بخبثه ، في خلق شرخ بين دارين ورهوان ، وربطها بطموح الوزارة، وعشمها بأفاق المناصب ، فأقامت الدورة بكل رغبة وشغف ، وواصلت الليل بالنهار بالتحضير ونقل المعلومات ، عن طريق المحاضرات التي كانت قد تلقتها في باريس ، فقلت لقاءاتها برهوان، وقد تذرعت له بشتى الوسائل ، وبتعبها في الدورة لحد الإجهاد وبدأ شقاق يتخلق بينهما ، ما لبث أن كبر و تفاقم بوضوح .

تعرفت دارين ، إلى مسؤولين كبار من خلال الدورة ، وعلى موظفين هامين من الطبقة العليا في الوزارات المتعددة ،

وعقدت صداقات ما كانت تحلم بها ، وخلال شهرين أصبحت دارين مشهورة بكفاءتها ، وإمكانياتها في العاصمة كلها .

وقالت في نفسها يوما :

- سامحك الله يا رهوان ، لقد أضعت معك في الفراش سنين عمري ، وانطمرت كلؤلؤة في رمال البحار وظلماتها ، حتى جاءت الفرصة، فأخرجني أبو رأفت من ظلمات سطوتك ، إلى إشعاعات النور المبهر، لكنني لا أستطيع التخلي عنك ، لأنك أنت من وضعني في سلك الوظيفة ، ثم سعيت لي بالمنحة إلى فرنسا ، وثانياً لأنني إذا تخليت عنك نهائيا ، فستقتلني انتقاماً وغيرة .

انتهت الدورة بحفلة ، حضرها كثير من المسؤولين ، في الحزب والدولة ، وألقت دارين كلمة ، أعجب بها كل الحضور ! وأعجبوا أكثر بجمالها وتألقها ! وتوقع لها بعضهم مستقبلا مرموقا .

و قال آخرون :

إنها مرشحة ، لأن تدخل مخادع مسؤولين كبار ، فجمالها يسقط أمامه كثير من الرجال ، الذين يتبوؤن المناصب .

واستلمت مديرة مكتب الوزير ، وأمينة سره، فكانت لقاءاتهما، يومية في الصباح والمساء.

وبعد شهور ،، . قال لها الوزير :

- سنبقى في الوزارة هذا المساء ، لنناقش بعض الأمور الخاصة ، والسرية وسأصرف الموظفين ، فلا يبقى إلا أنا وأنت . - كما تريد .

وانصرف كل الموظفين ولم يبق غيرهما، فقال لها :

أنت الآن قد حققت مجدا كبيرا ، اسمعي يا دارين ، وحويت علما وخبرة ، فلنتسامر في شؤون الحياة ، التي اعتقد أنني أكثر منك بها علما.

هذا لاشك فيه ، فأنت سياسي مخضرم ومثقف ومطلع

- إن الحياة يا دارين ، تقوم على المصالح المتبادلة ، لا على المزاجيات ، أو حتى المبادئ ، إن المبادئ يا دارين ، وجدت لخدمة المصالح ، حتى المؤمن المتعبد ، يعبد

الله طمعا في جنته ، أو خوفاً من ناره ، وقلة هم المؤمنون ، الذي يعبدون الله لذاته سبحانه ، وهم المؤمنون حقا ، ولكنهم قلة، بل لنقل هم الاستثناء ، الذي يثبت القاعدة ، إذن حتى العبادة ، وراءها مصلحة ، وليس في ذلك ضير ، أو عيب ولذلك إذا أردت إقامة الصلات والعلاقات ، بينك وبين شخص ما هام ومسؤول ، عليك أن توجدي الأرضية المشتركة والمصالح المشتركة ، لكل إنسان يا دارين ، ثمن. والذين يرفضون هذا القول ، هم مخطئون ، فقد يرفض أحدهم عرضاً ويقول :

- أنا لا أباع ولا أشترى ، ولكن في الحقيقة إذا قدم له عرض ، مغر كبير ، سينصاع ويقبل .

- لكن الإنسان لا يقدر بثمن ولا يباع !

هذا صحيح ، إذا قصدنا من الكلمة المعنى المباشر للبيع ، نكون عندها نقصد البيع ، بمفهوم النخاسة والعبودية ، أنا لم أقصد معنى البيع بحرفيته ، أقصد البيع المجازي ، أي أن تكون هناك مصالح مشتركة ، فيقدم أحد للآخر عرض مصلحة ، فإذا قبلها فعليه أن يقدم أيضاً مصلحة مماثلة تعادلها ، أو تزيد أو تنقص قليلا عنها ، وهذه العملية تشبه المقايضة ، التي تحمل معنى البيع، إنه

البيع بالمعنى المجازي ، شيء مقابل شيء ، ولا أقصت البيع ،

بمعنى العبودية .

سأضرب لك مثلا :

أنت تحبين القطط السيامية ، تشترين واحدة بثمن غال ، ثم تتوطد الألفة بينكما ، وقد تصبح القطة ، بغلاوة الولد ! في البدء انت اشتريت قطة ، ثم أصبحت القطة جزءاً منك، وأحببتها ، يعني تولدت عاطفة بينكما ، ولكن ما المصالح المتبادلة هنا ؟، القطة تتنعم بدلالك لها ، وأنت تحصدين متعة نفسية وعاطفية ، في داخلك، لها دوافعها

مثال آخر :

- قد تدفعين الغالي والنفيس من أجل الحصول على صداقة إنسان ما ، أو حتى حب ما، بمعنى من المعاني ، أنت اشتريت صداقته وحتى حبه ، ولكن أيضاً ليس معنى هذا ، أننا شيئناه أي جعلناه شيئا ، فقد ينقلب بعد ذلك إلى حبيب يبادلك الحب لذاتك ، في البدء العملية نفعية تطورت إلى علاقات روحية.

إن ما تقوله ، يا سيدي ، مفهوم ولكن ماذا ترمي من وراء ذلك ؟ فلقد تعلمت أن أكون واقعية ومباشرة ، عندما يقتضي الأمر ذلك .

- مليون فرنك فرنسي ، باسمك في مصرف بنك (فرانس) ، بباريس وشقة فخمة ، ذات إطلالات على نهر السين بباريس أيضا، تسجل باسمك ، وهذا بيان بالشقة ، وهذا رقم الحساب .

- ما المقابل ؟

- صك زواج رسمي ، وسري ، بدون علم أحد .

- تقصد أنك تريد الزواج بي ! لقاء مقايضة .... ولكن أين

وكيف ؟

وقف هنيهة ، وقال :

- تعالي ، ساريك مكتبك الذي تجهلين خفاياه وأسراره .

- مكتبي أنا ؟ !

- نعم مكتبك .

وذهبا إلى مكتب أمانة السر، وقف امام جدار وأخرج من جيبه ، جهاز تحكم ، وكبس بعض أزراره ، فتحرك الحائط على سكة مخفية ، وانزاح بمقدار مترين ، وانفتح مدخل إلى غرفة كبيرة، كانت مخفية تماما ، ولا يمكن لامرئ أن يتكهن بوجودها ، أمسكها من يدها ، ودخلا الغرفة، وهي خائفة تترقب وتتوجس خيفة، كانت غرفة بديعة ، رائعة رومانسية ، تداخل فيها اللونان الأسود والأحمر ، بديكور بديع ، وزخرفات من الجبس ، وضمت سريرا أنيقاً بمرايا متقابلة، وخزانة فخمة في الزاوية ، ولمحت بابا داخليا يؤدي إلى حمام ومغسلة، وكان في الغرفة طاولة وكرسيين و محتويات مطبخ متكامل ، وتعجبت من وجود خزانة للأرشيف ، فيها كثير من المصنفات

قالت :

- لم هذه الغرفة السرية ؟

- نحفظ فيها الأرشيف السري جدا . وهي تحفظ العلاقة الحميمية ، بين الوزير ومديرة مكتبه فهل توافقين على ما عرضت ؟

- وجمت قليلا ، ثم قالت : لدي شرط ، أن يكون صك الزواج رسمياً .

- وهل قلت غير ذلك؟

ولكن هل يمكن تسجيل الشقة ، باسمي في بلدية باريس؟!

طبعا يمكن ذلك ، وبإمكانك التأكد من صديقتك (سيمون) التي تعمل في التوثيق

- من أدراك بهذا ؟

هاتف رهوان ، الذي أراقب الأحاديث من خلاله .

إذن تعرف كل ما كان يدور؟

وأعرف ما كان يجري في الليالي ، من خمر وعنف ورغبات محمومة .

الهذه الدرجة أنت واصل يا سيادة الوزير؟

- لا تنادي المرأة زوجها (يا سيادة (مهما عظم منصبه ، أنت الآن زوجتي .

ليس قبل الصك الرسمي !

سيكون لك ما تريدين. ولكن أرجو أيضا ألا ينتشر الخبر ، أو يذاع ، وحتى أمك يجب ألا تعلم من هذا شيئا ، فعندي زوجة شريرة ، غيورة، حمقاء ، قد تسبب لنا المتاعب ، إذا علمت بالأمر، ولكن عندما نترك الوزارة ، نشهر زواجنا ونسافر إلى باريس ، ونقضي بقية عمرنا على ضفاف السين ، طبعا سأطلقها قبل المغادرة ، وننعم بثروة هائلة ، لا تتصوري حجمها ، إنها أكبر من الخيال.

عندما عادت لأمها مساء ، بان الفرح على وجهها ، فاكتسى بهالة من الألق والنضارة .

قالت الأم :

أراك منشرحة الصدر، جذلى .

- كان علي أن أخذ بنظريتك ، فانتقل للوزارة واترك رهوان.

- ماذا جرى ولم اقتنعت ؟ ما الأسباب ؟

فتحت لي أبواب السعادة والمجد ولا استطيع الآن أن أقول أكثر من ذلك .

استغلي الوقت . فلا شيء يدوم .

- سأفعل ما بوسعي ، فلقد أضعت سنوات عمري مع رهوان.

- اقطعي كل صلة به من الآن ، وكأن شيئا لم يكن .

- كل شيء في وقته .

واتصل بها وهو سكران . فقال :

- لماذا لم تمري بي فتشرحي ما يجري ، قلت : إنك ستكونين عينا لي في الوزارة ..

- إنني تعبة جدا ومريضة ، ساراك في الأسبوع مرة فقط ، وأنا من سيحدد الميعاد .

وأصابه يأس وقنوط ، وتمنى لو يذهب من فوره ، لبيتها فيخنقها أمام عيني أمها ، ولكن قرر الاستسلام للنوم ، قائلا في نفسه (اليوم خمر وغدا أمر)

وفي اليوم التالي ، جاء ليلاً مندوب من المحكمة الشرعية ،فعقد عليها ، وناما فى الغرفة السرية بالوزارة ، وتزوجها بعد أن في اليوم التالي ، جاء ليلا مندوب من

المحكمة الشرعية ، ابعدا سيارتيهما إلى مكان بعيد ، واعتذرت من أمها بالنوم خارج البيت ، وأن الأمر سيتكرر مستقبلا لأن أعمال الوزارة تتطلب ذلك، وخمنت أمها فى نفسها أمرا ، ولكنها كتمته ، وقالت في نفسها إن ما تمنيته حصل ، وفارق السن ليس عيبا ، إذا كانت عظام المسن من ياقوت)

وتغيبت عن رهوان شهرا ، بحجة المرض فصار يراقب تحركاتها ، ولم يعرف كيف تختفي ، ويضيع أثرها .

واتصلت به بعد حين ، وقالت :

- تلتقي بعد ساعة في كافتيريا جناح الطاووس)

- لماذا لا يكون في بيتنا بالعدوي ؟

- إنه بيتك ، لا بيتي ، ومن الآن لا أستطيع لقاءك في ذاك البيت ، لان في ذلك فضيحة ، وقضاء على مستقبل طالما تعبت من أجله .

- من يراقبك ولماذا ؟ !

- سأقول لك عندما نلتقي

ووافاها إلى كافتريا ، جناح الطاووس وطلبت فنجانين من

القهوة على السريع . وقالت :

لتوقف اللقاءات حاليا :

- لماذا ؟

- إنني مراقبة ، من أمن الوزارة.

- يخيل إليك ذلك ، فلا يوجد أمن بهذا الاسم.

إذن لنفترق كل في طريق .

- أنا مستعد أن أتزوجك رسميا . وفي الحال .

- عندما طلبت منك ذلك امتنعت ، والآن فات الأوان .

شربت القهوة بسرعة ، ثم انسحبت معتذرة، وبقي هو واجما يفكر بالأمر ، إن ما خشيه ، قد وقع ، ولكنه لن يدعهما يهنان بالنعيم ، فكر ثم قرر ، لابد من الانتقام وصيد ذئبين غادرين ، امر مشروع لحماية القطعان .

فوجئ الموظفون ، في صباح اليوم التالي برهوان ، يدخل الوزارة بثياب الصيد ، مخبنا مسدسه تحت الحزام ، كانت دارين

لصق الوزير تقدم له البريد .

فوجنا بصوته كهزيم الرعد !

- ما جزاء الخيانة ؟ يا أوباش ، !

قال الوزير :

ماذا تقول يا مجنون ، يا حراس أخرجوه أين الحراس؟

كبست دارين زر الإنذار ليحضر الأمن لكنه عاجلهما برصاصتين ، استقرت الأولى برأس الوزير ، فقتلته على الفور. والثانية في العمود الفقري الدارين فشلتها ، وحضر الحرس ، وجرى اشتباك قصير ، قتل بعده رهوان ، وجرح اثنان من الحرس، جاء الإسعاف ونقلت دارين مع جثة الوزير ، إلى المشفى الحكومي ، كان الوزير قد قتل منذ نصف ساعه ، وبعده بقليل قتل الحرس رهوان ، أما هي فدخلت العناية المشددة ، لإخراج الرصاصة من عمودها الفقري .

وحضر ذووها ، أمها وجدتها ، وعزيز وأهله ، واستمرت

العملية ساعات .

وخرج طبيب الأعصاب منهكا ، فهرعوا إليه يسألونه .

هل هي بخير ؟ وهل ستعود لممارسة حياتها بعد الشفاء .

قال طبيبها :

مبروك ، نجحت العملية ، لكنها ستبقى على الكرسي طيلة

حياتها.

وبعد أسبوع نقلها عزيز ، إلى مشفاه وصارت ، تغيب وتصحو من شدة الألم ، وزارتها جدتها وأمها إلى مشفى حمدو الحمصاني وجلستا بقربها ، قالت الجدة :

سأقرأ لها بعض آيات القرآن الكريم، واحضر لها الدكتور حمدو ، المصحف ، وصارت تتلو من آياته ، وصحت دارين على صوت جدتها وهي تقول الأخلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المنقين ثم غابت عن الوعي ، ولكن الجدة ما فتنت تقرأ ، ثم صحت دارين مرة ثانية ، فسمعت جدتها تقرأ (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا من عمل فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً منثورا فبكت وتحسرت ثم غابت عن الوعي.

وما زالت الجدة تتلو من كتاب الله ، ولكن دارين في غيبوبة. وقضت دارين بقية حياتها ، على كرسي متحرك في الطابق

(البانورامي) وهي تطل على دمشق ، تتذكر حياتها الماضية .

وخفف عنها الألم وجود عزيز وأولاده الأطباء الأربعة إلى

جانبها ، وكان أحبهم إلى قلبها الدكتور جميل .